# رواية الآلام بين متّى ومرقس

**الأب ميلاد الجاويش ب.م.**

## القسم الأوّل: لماذا متّى ومرقس معًا؟[١]

نشرح بدايةً السبب الذي دفعنا إلى التطرّق إلى رواية الآلام عند هذَين الإنجيليَّين دون غيرهما؛ ولماذا لم يُضمَّ إليهما، كالمعتاد، الإزائيّ الثالث لوقا. ولكي تستبين بالأكثر فرادتُهما، نتتبّع مجرى روايتَي الآلام عند لوقا ويوحنّا ونستخلص خصائصهما.

### ١- بين متّى ومرقس

يتّفق معظمُ الباحثين على أنّ متّى، في روايته آلام يسوع، شابه مرقسَ كثيرًا، بعد أن نقل عنه، كما هو معروف، معظم موادّه؛ فالاثنان يتّبعان تسلسل الأحداث نفسه: اقتراب الفصح، دهن يسوع بالطيب في بيت عنيا، الإنباء بخيانة يهوذا، وقائع عشاء الفصح مع ما سبقه من تهيئة وما تلاه من إنباء بخيانة التلاميذ كلّهم، في الطريق نحو بستان الزيتون، في الجسمانيّة، المحاكمة أمام قيافا والمجلس اليهوديّ، إنكار بطرس، المحاكمة أمام بيلاطس [هنا يزيد متّى نصّ انتحار يهوذا]، الجَلْد، درب الجلجلة، الصلب، التعييرات، الموت، الدفن [يختم متّى بنصّ حراسة القبر]. والاثنان أيضًا يُبرزان يسوع إنسانًا مرذولاً غارقًا في الألم، تتآكله العزلة التامّة والوحدة القاتلة. وحدهما يذكران أنّ نفْس يسوع حزينة حتّى الموت، وأنّه انفرد ثلاث مرّات ليصلّي على حدة علّه يخفّف من وطأة العزلة. في المحاكمة أمام قيافا، وحدهما انفردَا في ذكر شهود الزور الذين استقدمهم رؤساء اليهود ليشهدوا ضدّ يسوع، ويتّهموه بأنّه تنبّأ بتدمير الهيكل.

(١) في هذا الاسم أُلخّصُ بتصرّف: R. Brown, *La mort du Messie. Encyclopédie de la Passion du Christ. De Gethsémani au tombeau*, Bayard, Paris 2005, pp. 55-65.

وعندما اعترف يسوع بأنّه ابن الله، اتّهموه بالتجديف وسخروا منه كما لو أنّه نبيّ مزيَّف، قائلِين: «تنبَّأ». في الوقت نفسه، ها هي نبوءات يسوع في تلاميذه، وبالأخصّ في بطرس ويهوذا، تتحقّق: «سأضرب الراعي فتتبدّد الخراف». يهوذا يذهب ويشنق نفسه، وبطرس يغرق في الإنكار. في المحاكمة الرومانيّة؛ بالمقابل، تركّز الاتّهام والاستجواب لمعرفة هل يسوع هو حقًّا ملك اليهود. بيلاطس كان يعلم جيّدًا أنّ اليهود إنّما أسلموه حسدًا. مع ذلك، أسلمَ يسوعَ إلى هوى الجنود، فتفنّن هؤلاء في صنوف تعذيبه نفسًا وجسدًا: عرّوه، جلدوه، سخروا منه، بصقوا عليه... هكذا لم تُنصف أيّ عدالة على الأرض يسوع البارّ. لا تلميذ تحت الصليب، ولا صديق، ولا مُوالٍ. حتّى المارّة الذين لا علاقة لهم بما يحدث، نراهم يهزأون منه ويشمتون به.

ومن أوجه التشابه الأخرى بين متّى ومرقس، نرى أنّ كلَيهما يضمّن رواية الآلام عنده صلاةً ليسوع. في بستان الجسمانيّة، يصلّي يسوع بالآراميّة («أبّا»، عند مرقس فقط) واليونانيّة («يا أبتِ») كي تعبر عنه كأس الآلام. غير أنّ كلّ ما سيحدث لاحقًا يدلّ، أقلّه ظاهريًّا، على أنّ صلاته هذه لم تُستجَب؛ فكأس الآلام شربها حتّى الثمالة. وعلى الصليب أيضًا، يصلّي يسوع قبل موته بالآراميّة («ألوي ألوي لمّا شبقتاني»)، واليونانيّة («إلهي إلهي، لماذا تركتني؟»). صلاته هذه بالذات كانت موضع سخرية لدى الشعب المتطفّل («ها إنّه يدعو إيليّا»). في الختام، يصرخ يسوع «صرخة عظيمة» تشبه تلك التي كانت الأرواح النجسة تُطلقها عند خروجها من الممسوسين. يسوع يحتضر ويموت مهزومًا، وكأنّ الله هجره ولم يستجب لصلاته.

ما أوردناه من وجوه الشبه بين متّى ومرقس هو نموذج عن تقاربهما الأدبيّ واللاّهوتيّ، وسنفصّل الموضوع أكثر في سياق الدراسة. بالمقابل، ومع التشابه الكبير بين هذَين الإنجيليَّين، نجد أنّ فروقًا عدّة تميّز الواحد عن الآخر. بالإجمال حاول متّى التخفيف من حدّيّة مرقس في وصفه آلام يسوع وخيانة تلاميذه له. مثلٌ بسيط: إنْ طلب يسوع من تلاميذه أن يسهروا، فهو

لكي يسهروا «معه» (مت ٢٦: ٣٨)، فيشعرَ بالتالي بقليل من التعزية. هذا القرب المعنويّ الذي يطلبه يسوع من تلاميذه، هو من إنتاج متّى.

وممّا يتميّز به متّى أيضًا، هو التضمين الحاصل عنده بين رواية الطفولة في بداية الإنجيل ورواية الآلام في ختامه؛ فكما أنّ مساعي هيرودس الماكرة مع رؤساء الكهنة لقتل الطفل باءت بالفشل، كذلك مساعي رؤساء الكهنة والفرّيسيّين وبيلاطس فشلت في تحجيم بشارة القيامة والحدّ من انتشارها؛ وكما أنّ ولادة يسوع رافقها نجم كعلامة سماويّة، قادت مجوسًا غرباء ووثنيّين إلى الإيمان بملوكيّة يسوع، كذلك موت يسوع رافقته ظواهر غريبة (تزلزلت الأرض، والصخور تصدّعت، والقبور تفتّحت، وأجساد راقدين خرجت من القبور...)، دفعت وثنيًّا آخر إلى أن يعترف مع جنوده ببنوّة يسوع الإلهيّة؛ وكما أنّ حلمًا راود المجوس، كي يتحوّلوا عن هيرودس الملك، كذلك حلمٌ آخر راود امرأة بيلاطس وسعت إلى أن يتحوّل زوجها عن هذه المكيدة المدبَّرة ضدّ يسوع.

نقاط أخرى تميّز بها متّى، أهمّها على الإطلاق مقاربته مسألة مسؤوليّة الأحداث: من هو المسؤول عن إهدار دم يسوع البريء؟ هل يهوذا، أم رؤساء اليهود، أم بيلاطس، أم الشعب؟ لا ننسى أنّ متّى كتب إنجيله بعد خراب أورشليم ودمار الهيكل سنة ٧٠، فمن غير المستبعد أن يكون قد ردّد أصداء القناعة التي تولّدت لدى مؤمنيه ذوي الأصول اليهوديّة، من أنّ إحراق أورشليم وتدمير هيكلها حصلَا كنتيجةٍ للمعصية التي ارتكبها بنو أمّتهم، بأن أسلموا ابن الإنسان إلى الموت. يوسيفوس فلافيوس نفسه، مؤرّخ الحرب اليهوديّة الشهير، نقل هو أيضًا الأسئلة الوجوديّة التي طرحها اليهود آنذاك: «ماذا فعلنا من سوء عظيم حتّى استحققنا تأديبًا إلهيًّا بهذا الحجم؟». هذا الهمّ اللاّهوتيّ عند متّى، الذي يعكس حالة كنيسته أثناء تدوينه الإنجيل، يتكرّر مرّة أخرى في رواية تفسير اليهود لقيامة يسوع من الموت: «فانتشرت هذه الرواية بين اليهود إلى اليوم» (مت ٢٨: ١٥).

**٢- لوقا**

غالب النصوص اللوقاويّة لها ما يقابلها عند مرقس، ما عدا النصوص التي تتعلّق بمثول يسوع أمام الملك هيرودس أنتيبّاس (لو ٢٣: ٦-١٢)، ولقاء يسوع بنسوة أورشليم على طريق الجلجلة (٢٣: ٢٧-٣٢)، والمجرم المعترِف (٢٣: ٣٩-٤٣). غير أنّ المنحى العامّ للوقا يختلف عمّا هو عند مرقس ومتّى؛ فلوقا بالإجمال يخفِّف من وطأة عزلة يسوع، الذي طالما أُطلق عليه في الإنجيل الثالث لقب «الربّ». ويخفّف أيضًا من وطأة انكسار التلاميذ، فَهُم في النهاية رسل الكنيسة الذين سيدوّن لوقا أعمالهم المجيدة في سِفر أعمال الرسل. يسوع، مثلاً، لا يظهر مضطربًا في بستان الزيتون «حزينًا حتّى الموت»، وصلاته إلى الآب تُستجاب سريعًا، ويأتي من السماء ملاك يشجّعه (٢٢: ٤٣). الابن في تواصل واتّحاد كامل مع أبيه، بحيث إنّ كلماته الأخيرة على الصليب قيلت بسلام كلّيّ: «أبتِ، بين يديك أسلّم روحي» (٢٣: ٤٧). بطرس، بالمقابل، هو على يقين بأنّ المعلّم يصلّي له كي لا يسقط (٢٢: ٣٢). وإن هو سقط وأنكر، فالربّ حاضر دائمًا كي يرمقه بنظرة مشجّعة (٢٢: ٦١). التلاميذ، بدورهم، بدل أن يكونوا موضوع تأنيب، كانوا على العكس موضوع تطويب، كونهم ثبتوا مع الربّ في تجاربه (لو ٢٢: ٢٨-٣٠). ولمّا كان لوقا يعلم جيّدًا أنّ التلاميذ هربوا بعد اعتقال يسوع، فهو يسكت قصدًا عن غيابهم ويستّر عليه.

وإذا بان الله غائبًا أثناء آلام يسوع وموته عند متّى ومرقس، ولن يتدخّل إلاّ بعد الموت، فإنّه، عند لوقا، حاضرٌ وفعّال قبل موت الابن؛ فيسوع الذي قضى طيلة نشاطه العلنيّ يشفي المرضى، ها هو يشفي، في معمعة اعتقاله، أُذنَ أحدِ الذين أتوا لاعتقاله (٢٢: ٥١). وبسببه أيضًا تصالح محاكماه، بيلاطس وهيرودس، اللذان كانَا قبلاً متخاصمَين (٢٣: ١٢). ويسوع اللوقاويّ الذي قضى حياته يحنو على الخطأة ويغفر لهم، ها هو، في آلامه، يغفر من على الصليب لصالبيه ويبرّر عملهم بأنّهم يجهلون ما يفعلون (٢٣: ٣٤). وإذا كان طيلة حياته قريبًا

من الخطأة والعشّارين والزواني، ها هو في آخر لحظات حياته، يَعِدُ «مجرمًا» (وليس «لصًّا» فحسب، كما عند متّى ومرقس) بأن يكون معه في الفردوس في اليوم نفسه، بل أكثر من ذلك، بلغ به الحنوّ على هذا المجرم، بأن جعله يستحقّ أن يكون آخِر مَن يتكلّم يسوعُ معه من البشر قبل أن يسلّم روحَه بين يدَي أبيه، وبأن يقبل بأن يناديه هذا المجرم باسمه فقط («أذكرني يا يسوع»)، الأمر الذي لا نجده في كلّ الأناجيل إلاّ هنا (٢٣: ٣٩–٤٣).

وإذا كان الرؤساء والشعب مُعادين ليسوع عند متّى ومرقس، فإنّ الأمر عند لوقا ليس بالحدّيّة نفسها، بل، على العكس، نرى نساء أورشليم يبكين على يسوع المُساق إلى الجلجلة ويقرعنَ الصدور نائحات (٢٣: ٢٧–٣٢)، لا هنّ فقط، بل أيضًا الجموع التي احتشدت عند الصليب واكتفت بأن تشاهد ما يحدث من دون أن تستهزئ بالمصلوب (٢٣: ٤٨). هذه الصورة الإيجابيّة لليهود عند موت يسوع، تقابل الصورة الإيجابيّة التي يرسمها لوقا لهم في رواية الطفولة؛ فهناك أيضًا يُحاط الطفل برعاةٍ يأتون ويسجدون له (٢: ٨–٢٠). حتّى الهيكل اليهوديّ، لم يورد لوقا نبوءة خرابه، أثناء محاكمة يسوع أمام رؤساء اليهود، لأنّ هذا المكان المقدّس هو نفسه الذي يبدأ به لوقا إنجيله مع زكريّا (١: ٥ي)، ويُنهيه به مع الرسل المجتمعين في الهيكل يسبّحون الله (٢٤: ٥٣).

وكما في الإنجيل الثالث، كذلك في أعمال الرسل. فقد صوَّرَ لوقا محاكمة كلّ من إستفانوس وبولس على شاكلة محاكمة يسوع، الأوّل يغفر لراجميه ويسلّم روحه بين يدي الربّ يسوع (أع ٧: ٥٩)، كما فعل يسوع من على الصليب (لو ٢٣: ٤٦)، والثاني يمثل أمام محكمتَين، واحدة يهوديّة أمام الملك أغريبّا (أع ٢٦)، وأخرى وثنيّة أمام الحاكم فيلكس (أع ٢٤)، كما مثل يسوع أمام هيرودس وبيلاطس (لو ٢٣: ١–٢٥).

صورةٌ أخرى يرسمها لوقا عن يسوع في أناجيل الآلام: يبدو يسوع، في آلامه، نبيًّا وشهيدًا. في طول الإنجيل الثالث وعرضه، رسم لوقا يسوع بملامح

هي أقرب إلى ملامح نبيّ، وبالأخصّ ملامح إيليّا وأليشاع (لو ٤: ٢٤–٢٧؛ ٧: ١٦؛ ٩: ٨، ١٩؛ ٢٤: ١٩). وفي نهاية آلامه، سيصعد يسوع إلى السماء كما صعد إيليّا قديمًا (٢٤: ٥١؛ رج ٩: ٥١). سبق ليسوع أن حضّر، بنفسه، لدوره النبويّ هذا، بأن ذكّر اليهود بأنّ آباءهم اضطهدوا وقتلوا الأنبياء (٦: ٢٣؛ أع ٧: ٥٢)، وبأنّه لا يُقتَل نبيّ خارج أورشليم «قاتلة الأنبياء والمرسَلين إليها» (١٣: ٣٣–٣٤). أمّا يسوع - الشهيد فتظهر صورته في أنّه أسلم دعواه، هو البريء المتَّهم والمساق إلى الموت، إلى يدَي الله الكفيل وحده بأن يبرّره وينصفه (أع ٧: ٥٢؛ ١٣: ٣٥). هكذا أيضًا سيفعل إستفانوس الشهيد في أعمال الرسل (أع ٧: ٥٩). صراع يسوع لم يكن ضدّ ملوك هذا العالم ورؤسائه، بل ضدّ من هو أعظم منهم، ضدّ إبليس الذي رجع في «الوقت المناسب» يقلّب عليه قوّات الظلام (لو ٤: ١٣؛ ٢٢: ٣، ٣١، ٥٣).

هكذا يوصل لوقا رسالته إلى قارئيه: ستُضطهَدون كما اضُطهد المعلّم، وعليكم أن تغفروا لظالميكم كما غفر هو، وتتّحدوا مع أبيكم في السماء كما كان هو متّحدًا معه. إنّها صورة عن يسوع أقرب إلى المثال - النموذج. من هنا قام عدد من الباحثين وتكلّموا على لاهوت «الموت المسيحيّ» عند لوقا: يسوع يموت كبطل يغفر لأعدائه مفعَمًا بالسلام الداخليّ، وكنموذج مثاليّ على المسيحيّين أن يقتدوا به. لهذا أنكر بعضهم أن يكون لموت يسوع عند لوقا أيّ طابع فدائيّ، واتّهموه بأنّه أفرغ الصليبَ من بُعده الخلاصيّ، وحجّم يسوع من ربٍّ فادٍ إلى بطل غافر. حجّة هؤلاء أنّ لوقا، عندما نقل موادّه عن مرقس، حذف أيّ تلميح عن الفداء (قارن مر ١٠: ٤٥ مع لو ٢٢: ٢٤ي). وعندما استشهد لوقا بأناشيد عبد أشعيا المتألّم، لم يذكر آية «بجراحه شُفينا» (أش ٥٣: ٥؛ رج لو ٢٢: ٣٧؛ أع ٣: ١٣؛ ٨: ٣٢–٣٣). من جهة أخرى، قام عدد من الباحثين يقولون قولاً آخر: بلى، نجد عند لوقا لاهوت الفداء، ولو بطريقة خفيّة، وليس على طريقة بولس الواضح بتعابيره في هذا الشأن. ألم ينقل لوقا أنّ يسوع، منذ بدء حياته، «جُعل لقيام كثير من الناس في إسرائيل» (لو ٢: ٣٤)؟ ألم يُعلن يسوع نفسه أنّ دمه سيُراق من أجل الناس (٢٢: ٢٠)؟ ألم يُنبئ

أيضًا بأنّ «ابن الإنسان يجب عليه أن يتألّم كثيرًا ويُقتَل ويقوم» (أع ١٩: ٢٢)؟ ألم يتكلّم بولس اللوقاويّ أيضًا على كنيسة الله التي اكتسبها الابن بدمه (أع ٢٠: ٢٨)؟ نختصر ونقول، إنّ هذه النقطة أُثيرَت بعد أن قورن لوقا ببولس؛ فلو قُرئ لوقا بمعزل عن بولس، لما كان أحد يشكّ بالطابع الفدائيّ لموت يسوع.

### ٣- يوحنّا[٢]

يوحنّا، كعادته، يُغرِّد خارج سرب الأناجيل الإزائيّة (باستثناء بعض التشابه مع لوقا). نِصفُ موادّ مرقس الآلاميّة يمكن اعتبارها متطابقة مع موادّ يوحنّاويّة في الفصول المقابلة. النصف الآخر يمكن لملمته، عند يوحنّا، من هنا وهناك في طول الإنجيل الرابع وعرضه. بكلام آخر، لقد كان ليوحنّا مجال أوسع من الإزائيّين، أن يورد، في كامل إنجيله، ما حصروه هم في فصلَين اثنين. هذه الفسحة في حرّيّة التعبير، أتاحت ليوحنّا أن يظهر يسوع كإنسانٍ يسيطر على الوضع، ويذهب إلى الامه سيّدَ نفسه. في الفصل العاشر، أي قبل فصول الآلام بثمانية فصول، يُعلن يسوع أنّ حياته لا ينتزعها أحدٌ منه، وإن أعطاها فهو يُعطِها بكامل حرّيّته (يو ١٠: ١٧–١٨). قال يسوع هذا، فقرّر رؤساء اليهود قتله، واتّخذوا القرار أثناء المحكمة التي عقدوها قبل فصول الآلام بسبعة فصول (١١: ٤٧–٥٣). صلاة يسوع في الجسمانيّة، لخّصها يوحنّا في آيةٍ واحدة وشذّبها من كلّ عناصر الحزن والرهبة. لماذا؟ لأنّ الابن الذي يصلّي، هو والآب واحد: فكيف يخلّصه الآب من تلك الساعة، وهو لم يأتِ إلاّ لتلك الساعة، التي هي في الواقع ساعة مجد وليس ساعة ألم (١٢: ٢٧–٢٨)؟ لا يطلب يسوع أن يُبعد أبوه عنه كأس الآلام المرّة، بل، على العكس، مُناه أن يشرب الكأس التي يعطيها له (١٨: ١١). وبما أنّ يسوع يسيطر تمامًا على الوضع، نراه يستعجل يهوذا في أن يفعل ما يفعله (١٣: ٢٧). ولمّا أتى هذا

(٢) إضافةً إلى كتاب ريمون براون السابق ذكره، يمكن أيضًا مراجعة: Ugo Vanni, «La passione secondo Giovanni: una sinfonia di simboli», in A. Bini, *Le voci della passione*, Atti del Convegno di studi, Roma 30-31 marzo 2000, ed. Alfa Studio, Bologna, 157-166.

مع العصابة لاعتقاله، في البستان الذي وراء قدرون، كان يسوع يعلم جميع ما سيحدث له، فخرج هو إليهم وكأنّه كان في انتظارهم (١٨: ٤). وبدل أن يقع يسوع على الأرض، ها هم خصومه – مع أنّهم من الجنود وحرّاس الهيكل المسلّحين! – يرجعون إلى الوراء ويقعون عند قوله لهم «أنا هو»، وهو الاسم الذي به عرَّف الله عن نفسه لموسى (خر ١: ٢٢).

يسوع اليوحنّاويّ هو ابن الإنسان النازل من السماء، والذي أعطاه الآب كلّ سلطان الحكم (٥: ٢٢). لذلك لا أحد من البشر يقدر أن يحكم عليه. عندما استجوبه حنّان رئيس الكهنة، ردّ يسوع بسؤال: «لِمَ تسألني؟» (١٨: ٢١). وعندما قال بيلاطس إنّ له السلطان أن يحكم عليه، ذكّره يسوع بأن لا سلطان له عليه (١٩: ١١). بيلاطس هذا، ارتجف خوفًا عندما سمع أنّ الذي يحاكمه يقول عن نفسه إنّه ابن الله (١٩: ٨). يبدو أنّ مَن يُحاكم هنا هو بيلاطس وليس يسوع! كلّ مَن كان من الحقّ يصغي إلى صوت المحكوم عليه. وكلّ الحبكة هي في أن نرى إذا كان بيلاطس سيصغي إلى صوت يسوع أم لا (١٨: ٣٧). يصول بيلاطس في قصره ويجول بين اليهود الذين خارجًا ويسوع الذي في الداخل، كي يتفادى قول الحقّ الذي يعرفه جيّدًا، فيفضّل في النهاية أن يحكم زورًا. غير أنّ اليهود لم ينتصروا في المعركة، حتّى لو أقنعوا بيلاطس بقتل يسوع، لأنّ ذلك ما كان إلاّ بعد أن تخلّوا عن رجائهم المسيحانيّ، باعترافهم أن لا ملك عليهم إلاّ قيصر (١٩: ١٥). وعندما حكم بيلاطس على يسوع كانت الساعة نحو الظهر (١٩: ١٤)، في الساعة نفسها التي فيها يُذبح الحَمَل الفصحيّ. هكذا أصبح يسوع نفسه الحَمَل الفصحيّ الحقيقيّ، وهكذا تمّم بيلاطس ما سبق وقاله يوحنّا المعمدان في يسوع، في أوّل الإنجيل، من أنّه حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم (١: ٢٩).

يسوع عند مرقس ومتّى يُهزَأ به، وعند لوقا يغفر، لكنّه عند يوحنّا ينتصر. فهو بارتفاعه على الصليب، يعود إلى الآب ويجذب معه كثيرين (١٢: ٢٣). يسوع عند يوحنّا، وإن تألّم، هو ملك (١٨: ٣٦)، وملوكيّتة معلنة أمام

الجميع. بيلاطس نفسه يأمر بأن تُكتَب علّته بثلاث لغات، وتُعلَّق على الصليب كي يقرأها الجميع، وأيّ استئناف من قِبَل اليهود لا نفع له (١٩: ١٩–٢٢). حتّى تقسيم الجنود لثياب يسوع يُتَمِّم الكتب القديمة (١٩: ٢٣–٢٤؛ رج مز ٢٢: ١٩). يسوع لا يموت وحده، معزولاً، فأَحَبُّ تلاميذه بقربه، مع أمّه مريم وبعض النسوة (١٩: ٢٥–٢٧)، ولن يموت إلاّ بعد أن يتمّم كلّ شيء. وموته بالذات ليس موتًا، بل هو وهبٌ للروح (١٩: ٣٠، حرفيًّا: «وأعطى الروح»)، تمامًا كما وعد جماعته بأن يعطيهم الروح القدس بعد رحيله (١٥: ٢٦). وبعد موته أيضًا، يبقى يسوع فاعلاً: دم وماء يخرجان من جنبه، تمامًا مثلما قال في المؤمن الذي تتفجّر من جوفه ينابيع مياه حيّة (٧: ٣٨). وعندما لم يُكسَر له عظم، كان في الحقيقة يتمّم الكتاب (١٩: ٣٣–٣٧). أمّا دفنه فقد كان غاية في الاحتفاليّة، حيث دُفِقَ على جسده أثمن الأطياب وأفخرها، وأُودع قبرًا جديدًا لم يُدفَن فيه أحد من قبلُ (١٩: ٣٨–٤٢). الدفن عند الإزائيّين تمّ على عجل، أمّا عند يوحنّا فعلى مهل، لأنّ الذي يُدفَن هو ابن الله، مَلك، وعرشه الصليب.

كلمةُ يوحنّا واضحة: الذين يؤمنون بيسوع، هم أيضًا ينتصرون إن تألّموا واضُطهدوا. الإيمان وحده هو الذي يجعل من الضحيّة المنتصرَ الوحيد، لأنّ «كلّ مَن وُلد من الله يغلب العالم، وما غَلب العالم هذه الغلبة إنّما هو إيماننا» (١ يو ٥: ٤).

## القسم الثاني: رواية الآلام بين متّى ومرقس

كي لا نتيه في متاهة التقسيمات المختلفة التي حاولت تحديد فصول رواية الآلام عند الإنجيليّين، سنعتمد التقسيم الكلاسيكيّ الذي تتبنّاه معظم طبعات الكتاب المقدَّس، أي الفصلَين ٢٦ و٢٧ عند متّى، والفصلَين ١٤–١٥ عند مرقس.

وبما أنّ المادّة المتناولة غزيرة، ولا يمكن بالتالي إحاطتها بدراسة شاملة ولا بتحليل كتابيّ مفصّل، الأمر الذي يتخطّى إمكانيّة هذه الدراسة المحدودة،

سنكتفي بإجراء قراءة روائيّة لنصوص الآلام عند متّى ومرقس، لنتبيّن استراتجيّة السرد التي اتّبعها كلّ منهما، ونستجلي ما يجمعهما وما يميّز الواحد عن الآخر.

**١– رواية بين تضمينَين**

**أ. بين المقدّمة والخاتمة**

منذ السطور الأولى لرواية الآلام (مت ٢٦: ١–٥؛ مر ١٤: ١–٢)، يكشف متّى عن استراتجيّته الروائيّة، التي يريدها شبيهةً بتلك التي يتبنّاها مرقس، وفي الوقت نفسه، متميّزة عنها؛ فبينما مرقس يعتمد التبسيط في مقدّمة روايته، مكتفيًا بالإشارة إلى اقتراب عيد الفصح بعد يومَين، وإلى نيّة رؤساء الكهنة والكتبة في البحث كيف يُمسكون يسوع بحيلة ليقتلوه، يقدّم متّى نصًّا أكثر تشعّبًا ومفعمًا باللاهوت؛ فيسوع المُقبل إلى الآلام ليس أيًّا كان، بل هو المعلّم الذي سبق له أن ألقى على الجموع المواعظ الخمس الضخمة، و«**أتمّ جميع هذه الكلمات**»، وكأنّه أنهى المهمّة ولم يبقَ إلاّ الخاتمة. لأجل ذلك، زاد متّى، المتيقّظ لكلّ شيء، مصطلح «جميع» على خاتمة العظة الخامسة والأخيرة، الأمر الذي لم يذكره في خواتيم العظات الأربع السابقة (رج مت ٧: ٢٨؛ ١١: ١؛ ١٣: ٥٣؛ ١٩: ١). يبدو يسوع هنا كموسى الذي، قبل أن ينبئه الربّ بوفاته وهو على جبل نابو مع تلميذه يشوع، كان قد «دخل **وقال جميع كلمات الشريعة هذه** (ἐλάλησεν πάντας τοὺς λόγους) على مسامع الشعب، هو **ويشوع** (Ἰησοῦς) بن نون» (تث ٣٢: ٤٤ حسب السبعينيّة).

عند متّى، يبادر يسوع بالكلام مع تلاميذه لينبئ عمّا سيحدث معه: «ابن الإنسان سيُسلَم ليُصلَب»، كأنّه بهذا يسيطر على الحدث، فلن يُفاجَأ بالأحداث ولا هي تباغته. «ابن الإنسان» هذا، هو نفسه الذي قيل فيه، في الفصل السابق، إنّه سيأتي بمجد عظيم وتُحشَر لديه جميع الأمم (٢٥: ٣١ي). وبما أنّ يسوع يعلم بما سيحدث، «عندها» (τότε) فقط يجتمع رؤساء اليهود في مجلس مؤامرة، وكأنّهم ينفّذون ما يعلمه يسوع مسبقًا. مرقس، من جهته، لم يعتمد

الأسلوب المباشر، بل أبقى الكلام على لسان الرواي؛ ولم يذكر اجتماعًا عقده رؤساء الكهنة، بينما يسوع عند متّى يستحقّ أن يجتمع المجلس للنظر في مسألته. وبشيء من التهكّم، يُريهم متّى يخطّطون عبثًا للإمساك بيسوع بحيلة خارج العيد منعًا للبلبة، بينما يسوع كان واضحًا: بعد يومَين الفصح، وفيه سيُسلم ابن البشر. لا يمسكونه بفضل حِيلهم، بل هو «سيُسلَم» إليهم (παραδίδοται). بين الإمساك والتسليم فرق واضح، لأنّ القارئ يعلم أنّ فعل «أسلم» هو واحد من الأفعال التي تُظهر أنّ مخطّطًا إلهيًّا يكمن خلف الأحداث.

ليس هذا فقط، فهم يريدون مسكه «لقتله»، بينما هو يُسلَم «ليُصلَب» (εἰς τὸ σταυρωθῆναι). الهدف واضح: الصلب، مع ما يوحيه مفهوم الصلب من لاهوت الفداء. يسوع المسلَم إلى أيدي الخاطئين هو نفسه العبد المتألّم الذي أنبأ عنه أشعيا: «**أسلَم** نفسه للموت وأُحصي مع الأثمة» (أش ٥٣: ١٢). نقطة واحدة أصاب رؤساء اليهود فيها، وهي أنّ قتل يسوع ليس أمرًا عاديًّا ولن يمرّ بسهولة، لأنّ اضطرابًا يمكن أن يحدث في الشعب أثناء العيد. من حيث لا يدرون، اعترفوا بمكانة مَن يهمّون بقتله عند الناس (لوقا يقول: «لأنّهم يخافون الشعب»، لو ٢٢: ٢).

منذ البدء إذًا يتشابه متّى ومرقس في التشديد على نيّة رؤساء اليهود المسبقة في قتل يسوع، وعلى قصدهم الشرّير الذي يخالف الشريعة أيّما مخالفة. فإنّ قتلَ إنسان خفيةً عملٌ ملعون (تث ٢٧: ٢٤)، وجريمة يعاقب عليها القانون من دون أسباب تخفيفيّة (خر ٢١: ١٤). زد على ذلك أنّ بقصدهم هذا يعملون عمل الشرّير نفسه. «بحيلة»، وفي اليونانيّة δόλῳ، تترجم اللفظ العبريّ «عُرْما»[٣] الذي ينتمي إلى الحقل اللغويّ نفسه الذي توصَف به الحيّة المجرِّبة في سفر التكوين، «أَحْيَل» حيوانات الأرض («عروم»، تك ٣: ١).

هذا في المقدّمة، أمّا الخاتمة فمتّاويّة بامتياز، إذ لا مقابل لها عند باقي

(٣) رج، مثلاً، خر ٢١: ١٤ (حسب السبعينيّة).

الإنجيليّين، وفيها يروي متّى كيف أنّ رؤساء اليهود سعوا لدى بيلاطس إلى حراسة قبر يسوع من بعد موته (مت ٢٧: ٦٢–٦٦). تشكّل هذه الخاتمة تضمينًا رائعًا مع المقدّمة. كما في البداية يتحدّد الزمن قبل الفصح بيومين، كذلك في الختام «في الغد الذي بعد التهيئة». وكما في البداية، يجتمع رؤساء اليهود من جديد، هذه المرّة مع الفرّيسيّين بدل شيوخ الشعب، وأمام بيلاطس بدل قيافا. وكما في البداية، سينخدعون إذ ستسير الأمور عكس ما يشتهون: في البداية أرادوا قتل يسوع لكن ليس في العيد، بينما في الواقع يسوع صُلب في العيد؛ وفي الختام، حاولوا منع هذا المضلّ أن يحقّق ما أنبأ به من أنّه سيقوم في اليوم الثالث، بينما هو في الواقع قام في اليوم الثالث. كما في البداية يسوع يعلن بفمه بأنّه «يُسلَم ليُصلَب»، كذلك في الختام ينقل الرؤساء عن فم يسوع أنّه «بعد ثلاثة أيّام أقوم». هكذا يُعلَن سرّ الخلاص بقطبَيه، الصلب والقيامة، من على فم يسوع، في بداية الرواية وختامها، ويتحقّق رغمًا عن معارضة الرؤساء. في البداية، حرص الرؤساء ألاّ يحدث بلبال في الشعب، وفي الختام خافوا من الضلالة التي يمكن أن تصيب الشعب، بحال قام التلاميذ وأخذوا يبثّون بين الشعب أنّ يسوع قام من بين الأموات. كما في البداية كذلك في الختام، خالف الرؤساء الشريعة بشكل فاضح: هناك سَعَوا إلى قتل إنسان بحيلة، وهي جريمة كما رأينا تعاقب الشريعة عليها بالموت، وهنا خالفوا شريعة السبت وراحته، بأن قاموا بعمل يتخطّى المسموح به في السبت. لأجل ذلك، نرى متّى يصرّ على أن ينقل موقف بيلاطس: «إذهبوا أنتم واختموا كما تَرَون». هكذا تنحصر رواية الآلام بين مخالفتين ارتكبهما الرؤساء بحقّ الشريعة، بينما المسيح وتلاميذه، الذين يتّهمهم الرؤساء بالضلال، يحفظون السبت بامتياز: ابن الإنسان يستريح في قبره، والتلاميذ، ومن بينهم النسوة، لن يزرنَ القبر إلاّ بعد أن ينقضي السبت ويطلع الفجر (٢٨: ١).

**ب. بين الجسد المطيَّب والجسد المدفون**

هذا التضمين لا ينسحب فقط على المقدّمة والخاتمة، بل أيضًا على النصَّين اللذين يَليانهما. بعد المقدّمة، يروي متّى ومرقس خبر دهن امرأة مجهولة لجسد يسوع بالطيب في بيت عنيا عند سمعان الأبرص (مت ٢٦: ٦–١٣؛ مر ١٤: ٣–٩). بسّط متّى رواية مرقس، وأعرض عن تفاصيل كثيرة ذكرها الأخير في نصّه (اسم الطيب، سعره، كسر القارورة، تفاصيل في الانزعاج من عمل المرأة...). كما أجرى بعض التعديلات: المنزعجون هم التلاميذ وليس بعض الحاضرين. هكذا يُقحِم متّى التلاميذ، كما فعل في النصّ السابق، على عكس مرقس الذي غيّبهم عن النصَّين.

مقابل هذا النصّ، نقرأ، في ختام الرواية، خبر يوسف الرامي الذي يدفن جسد يسوع (مت ٢٧: ٥٧–٦١؛ مر ١٥: ٤٢–٤٧). هنا أيضًا، بسّط متّى خبر مرقس وعدّل فيه: يوسف هو رجلٌ غنيّ تلميذ ليسوع، بينما عند مرقس هو وجيه في المجلس ينتظر ملكوت الله؛ بيلاطس لا يتحقّق من موت يسوع ولا يتعجّب من موته السريع؛ ويوسف بكثير من الاحترام «يلفّ» (ἐνετύλιξεν) جسد يسوع بكتّان، ولا «يوثقه» (ἐνείλησεν) كما عند مرقس[٤].

في النصَّين، في البداية كما في الختام، موضوع الاهتمام واحد، وهو جسد يسوع (τὸ σῶμα). وبسبب هذا التضمين، لا يأتي الإنجيليّان على ذكر تطييب يوسف الرامي والنسوة لجسد يسوع عند الدفن، فهو قد طُيِّب وُدهن مسبقًا من المرأة تحضيرًا لدفنه (مت ٢٦: ١٢).

في النصَّين، يقوم يوسف والمرأة بـ«عمل صالح» (٢٦: ١٠)، يتعارض مع ما في محيط النصَّين من دسائس وتشهير وقتل، وحيث الجميع أخطأوا. في البداية، يقع نصّ التطييب بين مؤامرة رؤساء اليهود من جهة، وتخطيط يهوذا لتسليم يسوع من جهة أخرى؛ وفي الختام، يقع نصّ الدفن بين مشهد

(٤) الفعل الأوّل (ἐντυλίσσω) هو الفعل المستعمل عادةً في لغة تكفين الموتى، لذلك تبنّاه لوقا أيضًا (لو٢٣: ٣٥)، بينما الفعل الثاني (ἐνειλέω) مستهجن ولا يرد في العهد الجديد إلاّ هنا.

الصلب المريع وانعكاف النسوة اللواتي ينظرن عن بعد من جهة، ومؤامرة أخرى للرؤساء بإخفاء حقيقة القيامة من جهة أخرى. المرأة تطيّب يسوع للدفن، ويوسف «يُنزل» يسوع من على الصليب ليدفنه، تمامًا كما توقّع الناس متهكّمين («هل يأتي إيليّا ويُنزله»)، هذا حسب مرقس، أمّا متّى فيقول: «هل يأتي إيليّا ويخلّصه»). يوسف «التلميذ»، عاكس «التلاميذ» المحتجّين فوق على إهراق ثمن الطيب، بينما المرأة بقيت دون اسم ودون كلام، في محيط يعجّ بالأشخاص والكلمات.

**٢- رواية بين مائدة وخيانة**

**أ. تلميذ يخون**

بعد مشهد التطييب العابق حبًّا، ينقلنا الإنجيليَّان إلى مشهد آخر معاكس بالتمام: يهوذا، «أحد الاثني عشر»، يفاوض الخصوم على تسليم معلّمه (مت ٢٦: ١٤-١٦؛ مر ١٤: ١٠-١١). يفضّل متّى، كعادته، الأسلوب المباشر على غير المباشر الذي اعتمده مرقس، فنسمع يهوذا يُعلن بفمه عن القطبة الخفيّة وراء تسليمه لمعلّمه: «ماذا تريدون أن تعطوني، وأنا أسلّمه إليكم». ويتفرّد متّى بذكر الثلاثين من الفضّة، وبأنّ الرؤساء دفعوها له عند المفاوضة. عند مرقس، الدفع يتمّ عند التسليم: «ووعدوه بأن يعطوه شيئًا». كما أنّه لا يذكر الدافع الذي حدا بيهوذا إلى تسليم معلّمه. يتذكّر القارئ من الثلاثين من الفضّة نصًّا لزكريّا النبيّ (زك ١١: ١٢-١٣)، وآخر من سفر الخروج (خر ٢١: ٣٢). الكتاب يتمّ، ها هو الله وراء الأحداث. يسوع يُباع بثمن عبد! لا جدال في المفاوضات، بل قبول سريع بالسعر المعروض[٥]. من ناحية أخرى، ما خطّط له الرؤساء بأن يمسكوا يسوع بحيلة، يبدو أنّ يهوذا يأتي هنا ليحقّقه. غير أنّ يهوذا نفسه، ومن غير أن يعلم، يُحبط في الوقت نفسه مخطّط الرؤساء: لقد أرادوا الإمساك بيسوع خارج العيد تفاديًا للبلبلة، بينما هو سيسلم يسوع

(٥) يقول رولان ماينه في هذا الإطار: «Sobrietà e freddezza costituiscono la forza del racconto», cf. Roland Meynet, *La pasqua del Signore*, EDB, Bologna 2002, 31.

إليهم في العيد. من هنا نفهم أنّ لا هذا ولا أولئك كانوا يدرون ما يعملون.

لا يخفى على القارئ التعارض الصارخ بين يهوذا وعمله الدنيء وامرأة الطيب وعملها الصالح. هي امرأة مجهولة الاسم في محيط من رجال «يُدعَون» (ὁ λεγόμενος) قيافا ويهوذا وسمعان الأبرص (آ ٣، ٦، ١٤). هي تُفيض على يسوع طيبًا غالي الثمن، ويهوذا يسلم معلّمه بحفنة من المال. استاء التلاميذ (وهو يهوذا، حسب يوحنّا) من خسارة المال المُفاض على يسوع، بينما يهوذا جاز لنفسه أن يقايض معلّمه بقليل من الدراهم. هي تُعطي بسخاء، بينما يهوذا يقبض المال، وقيافا يقبض على يسوع. في «بيت الفقر» (وهو معنى اسم بيت عنيا)، أظهر التلاميذ حماسًا وغيرةً لمساعدة الفقراء، بينما يتبيّن أنّ الفقير الأكبر هو يسوع نفسه، الذي بيع بأبخس من سعر العبد! في بيت عنيا تحسّر التلاميذ على «خسارة» (ἀπώλεια) حفنة من المال (آ ٨)، بينما يسوع مزمع أن «يخسر» حياته نفسها[٦].

**ب. ومعلّم يتّكئ**

يواصل متّى تتبّعَ التسلسل المرقسيّ للأحداث، مع إدخاله فروقات تنمّ، على بساطتها، عن تَميّزه الجميل؛ فبينما يهوذا، من جهة، يدبّر المكائد والدسائس، نرى يسوع، من جهة أخرى، يتّكئ مع تلاميذه على العشاء، العشاء الذي تمّ التحضير له بعناية (مت ٢٦: ١٧–٢٥؛ مر ١٤: ١٢–٢١). مرقس يهتمّ بتفاصيل الإعداد للعشاء (مر ١٤: ١٢–١٦)، بينما متّى يتوسّع بالأكثر في تفاصيل العشاء نفسه (مت ٢٦: ٢٠–٢٥)، غير أنّ السياق العامّ عند الاثنين هو نفسه.

فبعد الاتّكاء على الطعام في بيت عنيا عند سمعان الأبرص، نحن مجدّدًا على المائدة في بيت «فلان»، مجهول الهويّة كالمرأة حاملة الطيب. التلميذ كان يعدّ

(٦) تعبِّر الأناجيل أحيانًا عن الموت بفعل «خسر» (ἀπώλλυμι، رج مت ٢: ١٣؛ ١٠: ٣٩؛ ٢٦: ٥٢؛ ٢٧: ٢٠)، وهو الفعل نفسه الذي من جذره تتحدّر كلمة «خسارة» (ἀπώλεια) المستعملة في مت ٢٦: ٨ للدلالة على خسارة المال.

الخيانة في السرّ، والمعلّم يشارك التلاميذ عشاء الفصح. معبّر جدًّا هذا التماوج بين المائدة والخيانة، بين الشركة والانعزال، بين المحبّة المقتسمة والحقد الدفين، ونراه يتكرّر أكثر من مرّة في رواية الآلام. غير أنّ يسوعَ يكشفُ مباشرةً عن خيانة تلميذه، في نصّ يَرد فيه فعل «أسلم» (παραδιδωμι) أربع مرّات (مت ٢٦: ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥). من أين عَلِمَ يسوع بمكيدة تلميذه، وبأنّ الطعنة تأتي هذه المرّة من الداخل؟ النصّ يصمت عن مصدر المعلومة، وهذا الصمت يوحي بأنّ يسوع، هنا أيضًا، يعلم ليس فقط الأحداث، بل هويّة التلميذ الخائن بالاسم: «فأجاب يهوذا الذي سيسلمه: أأنا هو، يا رابّي؟ فقال له: أنت قلت" (آ ٢٥). وإذا كانت «الفرصة" السانحة (εὐκαιρίαν) قد أُتيحت ليهوذا (آ ١٦)، فليس إلاّ لأنّ «وقت" (καιρός) يسوع قد اقترب (آ ١٨). هذا كلّه لا نقرأه عند مرقس بوضوح كما هو عند متّى، الذي وحده يورد الحوار بين يهوذا ويسوع. من ناحية أخرى، إن دلّ سؤال التلاميذ على شيء («أأنا هو يا ربّ؟")، فعلى أنّ كلّ تلميذ وضع نفسه تحت دائرة الشكّ، لأنّ الخيانة لم تكن غريبة عن أيّ واحد منهم.

ولأنّ يسوع هو محور الحدث، نراه أيضًا محور الأفعال كلّها: «أين تريد»، «نُعِدَّ لك»، «زماني»، «تلاميذي»، «فعلوا كما أمرهم»، «جلس مع الاثني عشر»... وصاحب أكثر من لقب: فهو «المعلّم»، «والربّ»، «وابن الإنسان»، «ورابّي»، بينما لا يذكر مرقس، ولا لوقا، إلاّ لقبَين اثنين: «المعلّم» و«ابن الإنسان». ومن هذه الألقاب، اكتفى يهوذا بأقلّها اعتبارًا «رابّي»، إذ لا يزال يرى في يسوع مجرّد رابّي لا خلاص عن يده.

في نصّ العشاء نفسه (مت ٢٦: ٢٦–٣٠؛ مر ١٤: ٢٢–٢٦)، نرى متّى يتبع مرقسَ بوفاء، ما عدا في بعض التفاصيل[٧]، أهمّها على الإطلاق أنّه زاد على كلام يسوع الإفخارستيّ عبارة «لمغفرة الخطايا» (εἰς ἄφεσιν ἁμαρτιῶν).

(٧) في هذا النصّ يسجّل لوقا فرادةً لا تخفى على القارئ؛ فهو ينفرد بالكلام على: ساعة يسوع، رغبته الشديدة في أكل هذا الفصح مع تلاميذه، فعل «يتألّم»، الكأسَين، «من أجلكم»، «إصنعوا لذكري»، «دم العهد».

وحده متّى بين الإزائيّين يذكر هنا مغفرة الخطايا، لأنّه وحده أيضًا لا يذكرها في معموديّة يوحنّا في بداية الإنجيل (قارن بين مت ٣: ٢ ومر ١: ٤ ولو ٣: ٣). الهدف واضح: يسوع وحده يغفر الخطايا، لا يوحنّا ولا معموديّته. عدا ذلك، المسار السابق نفسه يكتمل: الجسد (σῶμά) الذي أُفيضَ الطيبُ عليه سابقًا، والذي سيُدفَن لاحقًا بعناية، ها هو الآن يُكسَر ليُأكَل. في محيط مفعم بالخطايا والخيانات، يُهرَق دم يسوع ويُكسر جسده لمغفرة الخطايا، خطايا "الكثيرين" (πολλῶν، آ ٢٨)، أقرباء كانوا أم بعيدين.

### ٣. أمام التجربة

#### أ. التلاميذ يتعثّرون

بعد الإنباء بخيانة أحد الاثني عشر، ينبئ يسوع بتعثّر الاثني عشر جميعهم، بما فيهم بطرس (مت ٢٦: ٣١–٣٥؛ مر ١٤: ٢٧–٣١). الإنباء الأوّل حدث على مائدة، والثاني يبدو أنّه على الطريق بين قاعة العشاء وبستان الجسمانيّة. في حالة يهوذا، يفرض فعل «أسلم» نفسه، بحيث يصبح يهوذا «المُسلِّم» (مت ٢٦: ٢٥، ٤٦، ٤٨؛ ٢٧: ٣، ٤؛ راجع أيضًا ١٠: ٤)؛ بينما في حالة التلاميذ الباقين، يغلب فعل «تعثَّر» (σκανδαλιζω)، ليتحدّد أكثر في حالة بطرس مع فعل «أنكر» (ἀπαρνεομαι)[٨]. وبطرس، في حماسه، ينفي عنه الاثنين: «لن أعثر» (آ ٣٣)، «لن أنكر» (آ ٣٥).

ما يميّز متّى هو تشديده على شموليّة العثار: «جميعكم أنتم ستتعثّرون فيّ». يُلاحظ كيف أنّ مصطلح «جميع» يتقدّم على الضمير المنفصل «أنتم» (πάντες ὑμεῖς) – بينما يحذف مرقس الضمير المنفصل (مر ١٤: ٢٧) – وأنّه يتكرّر في النصّ ثلاث مرّات (آ ٣١، ٣٣، ٣٥). هذا البُعد الجماعيّ في نصّ متّى يظهر أيضًا في إضافته كلمة «قطيع» على الاستشهاد الكتابيّ الذي

(٨) في الإنباء عن إنكار بطرس (مت ٢٦: ٣٤)، يخفّف متّى من تشابك نصّ مرقس («الحقّ أقول لك، إنّك اليوم، في هذه الليلة، قبل أن يصيح الديك مرّتين، تنكرني ثلاث مرّات» (مر ١٤: ٣٠)، فحذف «اليوم»، و«مرّتَين».

أورده من سفر زكريّا (زك ١٣: ٧)، وهو أوّل استشهاد مباشر في رواية الآلام[٩]: «سأضرب الراعي فتتبدّد خراف **القطيع**» (آ ٣١).

ويزيد متّى بأنّ العثار سببه يسوع بالذات («فيّ»، ἐν ἐμοὶ)، ويشدّد على آنيّته («في هذه الليلة»). كما يجيد اللعب على الألفاظ: فإذا كان «الجميع» سيعثرون (آ ٣٥)، و«كلّ واحد» مشكوك فيه بأن يسلمه (آ ٢٢)، غير أنّ «الجميع» مشمول بغفران الخطايا الذي يُنال بالاشتراك في كأس العهد (آ ٢٧). هناك إذًا أفق إيجابيّ في قلب هذا المشهد الأسود. وتتأكّد هذه الإيجابيّة في الوعد الذي أطلقه يسوع لتلاميذه: «بعد قيامتي أتقدّمكم إلى الجليل» (آ ٣٢). إنّه تلميح مبطّن للقيامة الآتية. مقارنة مع حالة يهوذا، يبدو التلاميذ الآخرون أوفر حظًّا: فلا «ويل» لهم إن تعثّروا بابن الإنسان وأنكروه، ولا «حسن لهم لو لم يولدوا» (آ ٢٥)، ولا يهوذا سيتقدّمه يسوع إلى الجليل.

**ب. والابن يصلّي**

وصل أبطال الرواية إلى الجسمانيّة. الإطار العامّ للنصّ هو نفسه عند متّى ومرقس (مت ٢٦: ٣٦–٤٦؛ مر ١٤: ٣٢–٤٢): جوّ قاتم من الوحدة والحزن حتّى الموت. يسوع يغرق رويدًا رويدًا في وحدة رهيبة: يتنحّى أوّلاً عن الأحد عشر، ومن ثمّ عن التلاميذ الثلاثة، لثلاث مرّات متتالية، ويلوذ منفردًا بصلاة مثلّثة. يطلب تعزية ولا يجدها، لا عند تلاميذه النيام، ولا عند أبيه الصامت دائمًا. يتكلّم وحده ولا أحد غيره. في لحظات كهذه، كيان الإنسان كلّه يكون متوتّرًا مشدودًا: **النفس** حزينة، **الجسد** ضعيف، **العيون** ثقيلة، **الوجه** ساقط على الأرض، **أيدي** الخصوم متأهّبة للانقضاض. وحده **الروح** يُرجى أن يكون مندفعًا.

غير أنّ متّى أعمل في نصّ مرقس منجل قلمه، وأجرى تعديلات غير قليلة توافق لاهوته. منذ البداية يعطي متّى الأهمّيّة ليسوع، عبر صيغة المفرد لفعل

(٩) قبلاً، في آ ٢٤، يذكر متّى أنّ ابن الإنسان ماضٍ، **كما هو مكتوب**، لكن من غير أن يحدّد النصّ.

«جاء»، والتلاميذ «معه»، بينما فضّل مرقس كعادته صيغة الجمع «وجاؤوا». هكذا تتحقّق فعلاً كلمة يسوع من أنّ ابن الإنسان «ماضٍ» إلى الآلام من غير تردّد (مت ٢٦: ٢٤). وإذا كان لابن الإنسان هذا أن يكتئب ويحزن، فباعتدال ومن غير إفراط. الرهبة (مر: ἐκθαμβεῖσθαι)، استُبدلت بالحزن (مت: λυπεῖσθαι)، والدعوة إلى السهر تتشخصن أكثر: «إسهروا **معي**» (آ ٣٨، ٤٠). يسوع يرجع إلى الصلاة مرّات ثلاث (مر: يرجع يسوع «مرّة ثالثة» إلى تلاميذه)، وفي مرّتَين اثنتَين يُذكر محتوى صلاته (مر: في المرّة الأولى فقط)، أمّا محورها فهو، لثلاث مرّات، إرادة يسوع في تتميم إرادة أبيه. لذلك تُحذَف كلّ إشارة مرقسيّة مفرطة في الإحباط: «كي تبتعد عنه الساعة إن أمكن» (مر ١٤: ٣٥)، «قُضي الأمر» (آ ٤١).

لبطرس عند الاثنين أهمّيّة خاصّة، ولو عبّر كلّ منهما عنها على طريقته؛ فمتّى لا يذكر بالاسم من التلاميذ الثلاثة إلاّ بطرس وحده، ومرّتين (آ ٣٧، ٤٠)؛ بينما مرقس يذكر الثلاثة بأسمائهم (مر ١٤: ٣٣)، مخصّصًا بطرس عندما توجّه يسوعُ إليه بالكلام بعد رجوعه من صلاته الأولى: «يا سمعان، أتنام؟ ألم تقوَ على السهر ساعة واحدة» (آ ٣٧). هذه المناداة لها أهمّيّتها عند مرقس. فبعد أن أطلق يسوع، نهائيًّا، على سمعان اسم «بطرس»، بعد مر ٣: ١٦، يعود فيناديه باسمه القديم في ساعة ضعفه «يا سمعان». هذا الغمز من قناة الاسم، لا يحتاج إليه متّى؛ فبطرس هو «بِتروس» («الصخرة») التي سيبني المسيح كنيستَه عليها (مت ١٦: ١٨). فلا جدوى بالتالي من إذلاله كثيرًا بالتركيز على ضعفه.

الساعة اقتربت باقتراب يهوذا. هذا ما عبّر عنه متّى بمقارنة لافتة تغيب عن النصّ المرقسيّ: «ها قد اقتربت الساعة... ها قد اقترب الذي يسلّمني» (آ ٤٥–٤٦: ἰδοὺ ἤγγικεν ἡ ὥρα ... ἰδοὺ ἤγγικεν ὁ παραδιδούς με). والتلاميذ، من جهتهم، لا يمكن أن يؤخّروها ولا أن يقدّموها، من هنا دعاهم يسوع إلى أن يناموا ويستريحوا. هو لم يطلب منهم سوى أن يسهروا

معه ويصلّوا، فيثبتوا في التجربة، لكنّهم ناموا وسقطوا، بينما هو واجه ولم يسقط فيها.

**ج. عند الاعتقال: لا للعنف**

لا يزال متّى يتبع تسلسل مرقس (مت ٢٦: ٤٧–٥٦؛ مر ١٤: ٤٣–٥٠)، والتأرجح بين الخيانة والحبّ متواصل؛ فما إن أنهى يسوع صلاته مع أبيه وأنبأ بوصول التلميذ المسلّم، حتّى وصل هذا ومعه جمهور كبير. الأحداث إذًا تتسارع وكأنّها تجرف الجميع، لا سيّما التلاميذ النائمين الغافلين. هذه السرعة عبّر عنها متّى بأنْ أكثرَ، عند كلّ آية تقريبًا، تعابير مثل: «بينما» (ἔτι) "حينئذٍ" (τότε)، "ها هو" (ἰδοὺ)، "من وقته" (εὐθέως).

شخصان اثنان متناقضان يعيان وحدهما ما يفعلان: يهوذا ويسوع؛ فالأوّل ينفّذ تمامًا ما سبق وخطّط له مع رؤساء اليهود؛ والثاني لا يتفاجأ بالأحداث التي ستتمّ كما سبق وأنبأ بها، وبالأفعال نفسها: ستُبسَط الأيدي عليه، **ويُمسَك** (قارن مع آ ٤)، **ويُسلم** (قارن مع آ ٢، ٢١–٢٥، ٤٥) إلى **أيدي الخطأة** (قارن مع آ ٤٥). يتحسّر يسوع كيف أنّ خصومه خرجوا عليه كما لو على لصّ، ولا يلبث أن يُصلَب فعلاً بين لصَّين (٢٧: ٣٨)، بل أكثر من ذلك، يسوع يعرف سرائر القلوب أيضًا. فعندما أراد يهوذا أن يميّع عمله ويخدع يسوع، بأن يقبّله بشدّة (هذا ما يعنيه الفعل المركّب κατεφίλησεν)، ويسلّم عليه بتحيّة السلام المعتادة (χαῖρε, ῥαββί)، فضحه يسوع وحثّه على أن يُنهي بسرعة ما أتى لأجله دون رياء ولا تورية: "يا صاحبي، إفعلْ ما جئتَ له". لا تدلّ هذه العبارة، التي ينفرد بها متّى، على قدريّة ما، بل على وعي يسوع لما يحدث ولما يُحاك في القلوب. صحيح أنّ يهوذا لا يحمل سيفًا ولا عصًا، بل أخطر من ذلك: قبلة تحمل في طيّاتها الموت.

ومن ميّزات متّى في هذا النصّ أنّه انفرد عن مرقس بإيراده ردّة فعل يسوع على من أخذ السيف وقطع أذن عبد رئيس الكهنة (آ ٥٢–٥٣). بدايةً،

يذكر متّى أنّ مَن أخذ السيف هو «واحد من الذين مع يسوع» (مر: «أحد الحاضرين»). هكذا، ومن دون أن يدري، أصبح هذا التلميذ كواحد من خصوم يسوع الحاملي السيوف، وهذا ما لم يُرده يسوع بأن يتساوى تلميذه مع من أتوا حاملين السيوف.

صاغ يسوع اعتراضه بأن أعلن مبدأً عامًّا معطوفًا على سؤالَين اثنَين: «الذين يأخذون السيف، بالسيف يؤخَذون. أوتظنّ أنّه لا يمكنني أن أسأل أبي، فيمدّني الآن بأكثر من اثني عشر فيلقًا من الملائكة؟ كيف إذًا تتمّ الكتب أنّه هكذا يجب أن يحدث؟». في هذه الآية الدلالات متنوّعة:

– حذّر يسوع تلاميذَه من تجربة اللجوء إلى العنف، كما حذّرهم سابقًا من تجربة النوم وقت المحنة. في الحالتَين تأتي الأفعال بصيغة الأمر مع شرح لها: «إسهروا وصلّوا كي... أَرجِع سيفك إلى غمده لأنّ...».

– هناك مَن يربط هذا النصّ بكلام أشعيا عن العبد المتألّم: «بالإكراه والقضاء أُخذ" (أش ٥٣: ٨). غير أنّ الربط الأقرب هو مع تك ٩: ٦، حيث الكلام على العهد الذي أبرمه الله مع نوح بعد الطوفان: «مَن سَفك دم إنسان، بإنسانٍ دمُه يُسفك»[١٠]. يُلاحظ أوّلاً التركيبة المُصلَّبة نفسها للجملتين (chiastique). في القديم، عندما رأى الله أنّ العنف يملأ الأرض، تندّم على خلق الإنسان وقرّر أن يبيد الجميع حتّى تطهر الأرض، فأرسل الطوفان وأزال العنف حافظًا فقط نوح الرجل البارّ وعائلته. وبعد الطوفان، تندّم الله على استعمال العنف، وأعطى علامة أنّه لن يلجأ بعد الآن إلى العنف لاستئصال العنف. وكانت العلامة قوس القزح، كإشارة إلى أنّ الله علّق قوسه الحربيّ على الغيوم (Arc–en–ciel). في الجسمانيّة، حيث العنف يملأ المشهد، حافظ الله على قسمه ولم يلجأ إلى العنف لحلّ العنف المُطبِق على يسوع. هكذا تمّم يسوع صورة نوح وتخطّاها في آن معًا. في القديم حُفظ البارّ، والخطأة العنيفون هلكوا، بينما في العهد الجديد، يُساق البارّ إلى الموت، بينما الباقون ينجون ويخلصون: العصابة تنتصر والتلاميذ يهربون.

(١٠) رج هذا الربط في: Roland Meynet, *La pasqua del Signore*, 59.

– «أبي» تردّنا إلى صلاة يسوع في البستان نحو «أبيه» (آ ٣٩، ٤٢)[١١]، أبيه صاحب الملكوت (آ ٢٦)، «القادر» (مع فعل δύναμαι) بأن ينجّي ابنه من شرب الكأس المرّ (آ ٣٩، ٤٢)، كما «القادر» بأن يرسل له فيالق ملائكة يدافعون عنه (آ ٥٣). غير أنّ مشيئة الآب التي يبحث يسوع في صلاته أن «تحدث» (مع فعل γενομαι، آ ٣٩، ٤٢)، والتي نصّت الكتب على «وجوب حدوثها» (آ ٥٤ فقط عند متّى، وآ ٥٦)، لا تكمن في استعمال العنف للردّ على العنف المستجدّ، بل في كسر حلقة العنف، وذلك بأن يقبل العنف ويشرب الكأس المتأتّي عنه. في الظاهر، يتخلّى الآب عن ابنه، بينما الابن في الواقع يعمل بالتمام مشيئة أبيه.

– بدل التلاميذ الاثنَي عشر الخاذلين، يمكن اللجوء إلى اثنَي عشر فيلقًا من الملائكة. الاستنجاد بالملائكة يردّنا إلى التجارب في البرّيّة (مت ٤: ٥–٧): في الختام، قبل موته، لم يقع يسوع في تجربة استعمال القوّة، تمامًا كما لم يقع فيها في بداية رسالته عندما استفزّه إبليس بأن يستنجد بالله، إن كان حقًّا ابن الله، فيرسل ملائكته كي لا تصدم بحجر رجله.

ومن أهمّ ما حذفه متّى من نصّ مرقس، هو عدم كلامه على التلميذ الشابّ الهارب (مر ١٤: ٥١–٥٢). واكتفى بالإشارة إلى أنّ التلاميذ «جميعهم» (آ ٥٠) هربوا، بعد أن كانوا قد أقسموا «جميعهم» (آ ٣١) على الدفاع حتّى الموت عن المعلّم. مرقس، من جهته، شخصن أكثر حالة التلاميذ ليرسم عنهم ثلاثة نماذج مختلفة: «واحد» (εἷς) منهم أسلم المعلّم (مر ١٤: ٤٣)، و«واحد» (εἷς) حاول الدفاع مستعملاً الأسلوب الخطأ (آ ٤٧)، و«واحد» (τις) ولّى هاربًا (آ ٥١) كما فعل الآخرون (آ ٥٠).

(١١) في النصوص المقابلة عند مرقس لا ترد كلمة «أبي» إلاّ مرّة واحدة: αββα ὁ πατήρ (١٤: ٣٦).

**٤– أمام قيافا**

**أ. في الداخل يسوع يعترف**

المحاكمة بشقّها اليهوديّ ترد عند متّى ومرقس معًا (مت ٢٦: ٥٧–٦٨؛ مر ١٤: ٥٣–٥٦). هنا، عود على بدء؛ فما خُطِّط له في البداية (آ ٣–٥)، يتمّ الآن بحذافيره (نضع التعابير المشتركة بخطّ عريض): **الشيوخ ورؤساء الكهنة،** زيد عليهم الآن الكتبة، **مجتمعون في دار قيافا رئيس الكهنة**؛ ويسوع الذي أرادوا **إمساكه،** ها هو يُقاد إليهم الآن **ممسوكًا به**؛ والحيلة التي كانوا يسعون إلى إيجادها، تكتمل فصولها باستنباط شهود الزور الكثر، الذين أتوا بهم ليشهدوا زورًا على يسوع كي **يُميتوه.** من الآن وصاعدًا يبدو يسوع أبطأ حركة وأقلّ مبادرة؛ لم يَعُد يصنع الأحداث بل يتلقّاها. لا أحد بقربه، وحيدًا، وإن تبعه بطرس فعن «بُعد»، فتتحقّق فيه كلمة المزمور: «أقربائي وقفوا **عن بُعد** (ἀπὸ μακρόθεν)» (مز ٣٧: ١٢، حسب السبعينيّة). هو قليل الكلام، صامت بالغالب، وإن تكلّم فلكي يؤكّد هويّته الحقيقيّة. أمّا مع شهود الزور فالتزم الصمت المطبق. هذه هي الخطوط العريضة التي حافظ عليها متّى ومرقس، ولو افترقَا عن بعضهما في بعض التفاصيل.

فالاثنان شدّدَا على مهزلة شهود الزور وعلى نيّة المجلس المسبقة بقتل يسوع. ثنّى متّى، كعادته، عدد الشهود الذين أدلوا بشهادة هدم الهيكل (مت: «تقدّم اثنان»؛ مر: «بعضهم»)، تماشيًا مع ما تنصّ عليه الشريعة بأن لا تؤخذ جريرة أحد إلاّ على كلام شاهدَين أو ثلاثة (تث ١٩: ١٥). وحذف كلام مرقس على أنّ «شهادتهم لم تتّفق» (مر ١٤: ٥٦، ٥٩)، كونه ذكر أنّ القصّة كلّها تدور في فلك شهود الزور. كما أورد الاثنان الشهادة التي تتعلّق بهدم الهيكل، والاثنان سيعاودان ذكرها عند أقدام الصليب (مت ٢٧: ٤٠؛ مر ١٥ ٢٩)، مع أنّهما لم ينقلَا كلامًا على فم يسوع بهذا الصدد، على عكس يوحنّا الذي أورد كلامًا مماثلاً في إنجيله (يو ٢: ١٩)، ولوقا في كتاب أعمال الرسل على لسان إستفانوس الشهيد (أع ٦: ١٤). الشاهدان عند متّى أوردَا

الشهادة من باب الاحتمال («إنّي قادر على هدم هيكل الله...»)، بينما أوردها أمثالهم عند مرقس كأمر سيتحقّق حتمًا («إنّي سأهدم هذا الهيكل...»). هناك تلميح واضح عند مرقس إلى قيامة يسوع، لا سيّما في التفريق بين الهيكلَين، «المصنوع بيد... وغير المصنوع بيد».

وشدّد الاثنان أيضًا على صمت يسوع (حذف متّى التكرار المرقسيّ المعهود: «فظلّ صامتًا لا يجيب بشيء»)، لأنّ الاثنَين رأيَا في يسوع صورة العبد المتألّم الذي يُقاد إلى الموت دون أن يفتح فاه (أش ٥٣: ٧).

في استجواب قيافا ليسوع، حافظ مرقس على الطابع القضائيّ للمحاكمة: يقوم قيافا «إلى الوسط» (يحذفها متّى)، «يسأل» يسوع مرّتين (مر ١٤: ٦٠، ٦١؛ مت: «قال»)؛ وعندما أعطى يسوع جوابه، «حكم الجميع» أنّه يستوجب الموت (مت: «أجابوا»). هذه التفاصيل أغفل عنها متّى، فلماذا يوردها ما دامت المحكمة صُوَريّة ونيّة القتل مسبقة؟ ولمزيد من التهكّم، يتفرّد متّى بالقول إنّ بطرس تبع يسوع إلى داخل دار الكهنة «ليرى الخاتمة» (ἰδεῖν τὸ τέλος)، الخاتمة التي حُدِّدت حتّى قبل أن تبدأ المحكمة[١٢]. من ناحية أخرى، يُسبغ متّى شكلاً أكثر احتفاليّة على المواجهة التي تمّت بين قيافا ويسوع: قيافا يستحلف يسوع بالله الحيّ كي يكشف للمجلس عن حقيقة هويّته، ولا يتوانى عن تسمية الله بالاسم: «إن كنتَ المسيح ابن الله» (مر: «أأنتَ المسيح ابن المبارك؟»)؛ أمّا يسوع، في جوابه، فأحاله على كلامه نفسه: «أنتَ قلت» (مر: «أنا هو»)؛ فكانت النتيجة أنّ قيافا أعلن بفمه: «لقد جدّف»، وأنّ الحكم صدر مباشرة من فم المجلس كلّه: «إنّه يستوجب الموت». أخرج متّى هذا الحكم من فم اليهود أنفسهم، لأنّه طالما ركّز في رواية الآلام على دور اليهود ومسؤوليّتهم في قتل يسوع. وها هي المواجهة تبدأ وجهًا لوجه بين يسوع وعظيم كهنتهم، وستتوالى فصولها لاحقًا إلى أن تبلغ أوجها بإعلان

(١٢) مرقس، بالمقابل، يقول إنّ بطرس جلس مع الخدم ليستدفئ من النار (حرفيًّا: «من النور»، والمقصود لهيب النار، مر ١٤: ٥٤).

اليهود صراحة: «دمه علينا وعلى أولادنا» (مت ٢٧: ٢٥). إذا كانت الكنيسة قد اعترفت الاعتراف نفسه بلسان رئيسها بطرس، أنّ يسوع هو «المسيح ابن الله الحيّ» (مت ١٦: ١٦)، فإنّ المجمع اليهوديّ، بشخص رئيس الكهنة والمجلس كلّه، يرفض هذا الاعتراف ويستمرّ في غيّه. لأجل ذلك، إذا كان ليسوع أن ينتصر على الموت ويبيّن للجميع حقيقة هويّته، فهذا لن يكون عملاً مرميًّا في أحضان المستقبل أو الإسكاتولوجيا الأخيريّة، بل هو يتحقّق، بالنسبة إلى متّى، في اللحظة الحاضرة «منذ الآن» (التي لا نجدها عند مرقس): «منذ الآن سترون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القدير وآتيًا على غمام السماء» (آ ٦٤؛ مز ١١٠: ١؛ دا ٧: ١٣).

هذه المحاكمة الصُوَريّة تنتهي بحفلة من صنوف الضرب والإهانة. عومل يسوع كنبيّ مزيّف، «قنّعوا وجهه» (مر)، وطلبوا منه أن يتنبّأ: «تنبّأ! [ويزيد مت:] أيّها المسيح من الذي ضربك؟»[١٣]. المفارقة هي «أن يُطلَب من يسوع أن يتنبّأ في الوقت الذي تتحقّق فيه نبوءة العبد المتألّم»[١٤].

### ب. وفي الخارج بطرس يُنكر

لا يزال متّى ومرقس يحافظان على التسلسل نفسه: في قلب المحاكمة اليهوديّة يُفتَقد بطرس (مت ٢٦: ٦٩–٧٥؛ مر ١٤: ٦٦–٧٢). هنا بطرس، وبعد قليل يهوذا. نصّ لهذا ونصّ لذاك، يسوع ينبئ بخيانة هذا وإنكار ذاك، يهوذا يفاوض الرؤساء على تسليم المعلّم، وبطرس يحلف أمام خدّامهم بأنّه لا يعرف المعلّم، واحد استقوت عليه تجربة الجشع، والآخر سقط في هوّة الخوف؛ واحد انتهى به الأمر إلى شنق نفسه، والآخر إلى البكاء المرّ. إنّهما نموذجان عن تلميذَين تعاطَيا مع آلام المعلّم كلٌّ على طريقته.

---

(١٣) حذف متّى جملة مرقس، «وانهال عليه الخدم بالضرب» (ῥαπίσμασιν αὐτὸν ἔλαβον)، ربّما منعًا للتكرار، ولأنّ تركيبة الجملة بدت له غريبة وأقرب إلى اللاّتينيّة منها إلى اليونانيّة (verberibus accipere).

(١٤) Roland Meynet, *La pasqua del Signore*, 188.

برع متّى ومرقس، كلّ على طريقته، في وصف إنكار بطرس. عند متّى، نجد أنّ بطرس «يُخرج» نفسه شيئًا فشيئًا من مدار يسوع: بداية «دخل إلى الداخل» (εἰσελθὼν ἔσω)، داخل الدار، ليشاهد الخاتمة ولو عن بعد (آ ٥٨)، فإذ بنا نراه "خارجًا" (ἔξω) قبل فصول الإنكار (آ ٦٩). وبعد إنكاره الأوّل، واصل خروجه حتّى صار "عند الباب" (ἐξελθόντα δὲ εἰς τὸν πυλῶνα، آ ٧١)، إلى أن انتهى به المطاف بأن "خرج خارجًا" (آ ٧٥، ἐξελθὼν ἔξω)، على عكس ما كان عليه في البداية (εἰσελθὼν ἔσω).

مرقس، من ناحيته، اعتمد طريقة أخرى لا تقلّ جمالاً، إذ وصف الإنكار وكأنّه تدهور نحو الأسفل: بداية، كان بطرس في "الأسفل" (آ ٦٦، κάτω)، فإذ به، إنكارًا تلو الآخر، يصبح عند الدهليز خارجًا (آ ٦٨، ἐξῆλθεν ἔξω εἰς τὸ προαύλιον)، إلى أن انتهى به الأمر إلى السقوط والبكاء (آ ٧٢، ἐπιβαλὼν ἔκλαιεν)[١٥].

عدا ذلك، اعتمد متّى، أكثر من مرقس، تدرّجًا تصاعديًّا واضحًا في الإنكارات الثلاث:

– **في الإنكار الأوّل**

**مت**: مرأة – «كنتَ مع يسوع الجليليّ» – «أنكر أمام جميع الحاضرين» – «لا أدري ما تقولين»؛

**مر**: مرأة – «كنتَ مع الناصريّ مع يسوع» – «أنكر» – «لا أدري ولا أفهم ما تقولين».

– **في الإنكار الثاني**

**مت**: مرأة أخرى – «كان مع يسوع الناصريّ» – «أنكر ثانيًا وحلف» – «لا أعرف هذا الرجل»؛

(١٥) الترجمة المعتمدة في الطبعة اليسوعيّة لنصّ مرقس هي: «خرج على عجل وأخذ يبكي!» وهي مستوحاة من الترجمة الفرنسيّة المسكونيّة TOB: « il sortit précipitamment; il pleurait ».

**مر**: المرأة نفسها – «هذا منهم» – «أنكر ثانيًا».

**– في الإنكار الثالث**

**مت**: الحاضرون – «أنت منهم» – «أخذ يلعن ويحلف» – «لا أعرف هذا الرجل»؛

**مر**: الحاضرون – «حقًّا أنت منهم» – «أخذ يلعن ويحلف» – «لا أعرف هذا الرجل الذي تعنونه».

يتبيّن من هذا العرض أنّ التهمة، عند متّى، مسّت لمرّتَين علاقة بطرس بيسوع، في الأولى والثانية (مر: في المرّة الأولى فقط)، ومسّت في الثالثة علاقته بجماعة يسوع (مر: مرّتَين في الثانية والثالثة). هكذا عندما أنكر بطرس، اعتبر نفسه منفصلاً عن يسوع وأيضًا عن جماعة التلاميذ. ويتبيّن أنّ جواب بطرس كان بدايةً عموميًّا يمسّ الكلام الذي تقوله المرأة («لا أدري ما تقولين»)، ومن ثمّ مسّ لمرّتَين هويّة يسوع، لكن من غير أن يسمّيه («لا أعرف هذا الرجل»). كان هذا نتيجة الضغط المتزايد عليه، أوّلاً من امرأة توجّهت إليه بالكلام، ومن ثمّ من امرأة أخرى تُكلّم الحاضرين، وفي الثالثة من الحاضرين أنفسهم الذين يبادرونه بالسؤال. هناك أيضًا تصاعدٌ في فعل الإنكار: بدايةً أنكر بطرس أمام الجميع، وفي المرّة الثانية أنكر وحلف، وفي الثالثة أنكر وحلف ولعن. بالمقابل، اختصر متّى بعضًا من تكرارات مرقس: «نظرت الجارية ببطرس وتفرّست به»، «لا أعلم ولا أفهم»، وصياح الديك مرّتَين.

المعلّم بين الرؤساء يبرّد من قسوة الوحدة، والتلميذ مع خدّامهم يستدفئ. يسوع «يتقدّم» نحوه شهود الزور، وبطرس «تتقدّم»[١٦] نحوه امرأة ونفر من المتطفّلين. والمفارقة أنّ شهود الزور يكذبون، بينما المرأة والمتطفّلون يقولون الحقيقة وبطرس يكذب. يسوع يشهد في الداخل أنّه حقًّا «المسيح ابن

(١٦) في كلتا الحالتَين، يستعمل متّى فعلاً واحدًا «تقدَّمَ» (προσέρχομαι)، ليوحّد الصورة بين محاكمة يسوع و«محاكمة» بطرس. بينما مرقس يستعمل لشهود الزور فعل «قام» (ἀνίστημι، مر ١٤: ٥٧)، وللمرأة المقتربة من بطرس فعل «جاء» (ἔρχομαι، آ ٦٦).

الله»، تمامًا كما اعترف به بطرس سابقًا، بينما بطرس هنا يعجز، في الخارج، أن يعترف بأنّه ينتمي إلى «يسوع الناصريّ» وإلى جماعته! هكذا أنكر بطرس ليس فقط علاقته بالمعلّم، بل أيضًا هويّته كتلميذ، فأصبح لا يختلف عن غيره من شهود الزور، ولا عن غيره من التلاميذ الهاربين، فبدا أنّه «مرّة أخرى، أوّل بين متساوين (*primus inter pares*)»[١٧]. كانت «خاتمته» (آ ٥٨) هو، لا خاتمة يسوع، مأساويّة!

**٥- أمام بيلاطس**

قبل أن تبدأ المحاكمة أمام بيلاطس، يورد متّى ومرقس خبر انعقاد مجلس شورى اليهود عند فجر اليوم التالي (مت ٢٧: ١-٢؛ مر ١٥: ١-٢)، فكان القرار: رفع الدعوى إلى بيلاطس. وفي حين أنّ مرقس يُكمل خبره بالكلام على المحاكمة بشقّها الرومانيّ (مر ١٥: ٣-٥)، يقطع متّى الخبر ليورد، وحده، خبر انتحار يهوذا (٢٧: ٣-١٠). في بداية هذا الفصل السابع والعشرين، يكرّر متّى، بالتعابير نفسها تقريبًا، ما قاله في بداية الفصل السابق. مقصد الرؤساء الثابت والمسبق في قتل يسوع والتخلّص منه بأيّ ثمن: عقدوا مجلسًا «ضدّه» (κατὰ) «ليميتوه» (ὥστε θανατῶσαι αὐτόν). هذا المقصد سيحرّك أعمالهم كلّها في هذا الفصل أيضًا، كما سنرى في محلّه. مرقس، في آياته المقابلة، لا يذكر شيئًا عن هذا المقصد، بل فقط خبر انعقاد المجلس وتسليم يسوع موثوقًا إلى بيلاطس. نلاحظ أنّ فعل «أسلم» (παραδιδωμι) يرافق مسيرة يسوع في آلامه: سيسلم الرؤساء يسوعَ إلى بيلاطس، كما سلّمه إليهم يهوذا، فيتشاركون وإيّاه في الخيانة. غير أنّ فعلتهم أشدّ شناعة كونهم يسلّمون ابن أمّتهم إلى رجل غريب.

(١٧) Roland MEYNET, *La pasqua del Signore*, 47.

**أ. يهوذا ينتحر**

نصّ متّاويّ بامتياز (مت ٢٧: ٣–١٥)، لا يوازيه إلاّ ما أورده لوقا في أعمال الرسل عن خاتمة يهوذا (أع ١: ١٨–١٩). بعد بطرس، أتى الآن دور يهوذا، لتكتمل المقارنة بين هذَين النموذجَين: واحد قبلَ تسليم يسوع إلى بيلاطس (آ ١–٢)، والآخر مباشرة بعد التسليم. وضع متّى نصّ انتحار يهوذا في هذا المكان بالرغم من لامنطقيّة موقعه: سبق أن رأينا رؤساء اليهود يَسوقون يسوع إلى بيلاطس (٢٧: ٢)، فكيف نراهم الآن في الهيكل حيث أتاهم يهوذا حاملاً إليهم الثلاثين من الفضّة؟ ومن أين لهم الوقت الكافي لشراء حقل الخزّاف؟ من هنا نستطيع القول إنّ ما يهمّ متّى ليس تاريخيّة انتحار يهوذا، بل مقارنته مع بطرس. من الآن وصاعدًا لا يرد أيّ ذكر لهما في رواية الآلام. كلّ منهما أخذ نصيبه: واحد «خرج» ليبكي، وآخر «ذهب» وشنق نفسه.

يعترف يهوذا بخطيئته، مستعملاً الفعل نفسه «أسلم» الذي لاحقته لعنته منذ البداية: «خطئتُ إذ أسلمتُ دمًا بريئًا». غير أنّه يفتتح لازمة «الدم البريء» التي ستتكرّر فصولها لاحقًا[١٨]. يشدّد متّى في أكثر من محلّ، وعلى لسان أكثر من شخص، على براءة يسوع: هنا يهوذا، وبعد قليل بيلاطس وامرأته. ويسعى الجميع إلى تبرئة أنفسهم من مسؤوليّة إهراق الدم: يهوذا يردّ الثلاثين من الفضّة، والرؤساء يتملّصون ويحاولون إلصاق التهمة كلّها بيهوذا («ما لنا ولك؟ أنت أبصر؟»)، بعد قليل يغسل بيلاطس يدَيه، وامرأته تحذّره من إقحام نفسه في هذه القضيّة، إلى أن تبنّى الشعب المسؤوليّة وقال: «دمه علينا وعلى أولادنا» (مت ٢٧: ٢٥). أكثر من ذلك، لقد أشبع متّى نصّه هذا بلذعات من التهكّم: فبينما لم يكترث الرؤساء أنّهم ينوون قتل إنسان بريء، نراهم يأنفون من إلقاء ثمن دم في صندوق التقادم! نراهم يسعون إلى قتل **ابن بلدهم**، وبثمنه البخس يهتمّون بشراء حقل يُدفَن فيه **الغرباء**! دفن الغرباء هنا هو حجّة لشراء

(١٨) ترد كلمة «دم» في رواية الآلام المتّاويّة خمس مرّات (مت ٢٦: ٤، ٦، ٨؛ ٢٧: ٢٤، ٢٥)، بينما لا ترد ولا مرّة في النصوص المقابلة عند مرقس ولوقا.

حقل دُفع ثمنه من ثمن دم يسوع، كما كانت مساعدة الفقراء قبلاً حجّة لعدم إهراق الطيب على جسد يسوع.

**ج. ويسوع يصمت**

كما أمام قيافا كذلك أمام بيلاطس (مت ٢٧: ١١–١٤؛ مر ١٥: ٢–٥)، السيناريو نفسه يتكرّر: بيلاطس يسأل عن هويّة يسوع، يسوع يردّ الجواب نفسه؛ لكن لمّا أخذ رؤساء اليهود يتّهمونه، وبيلاطس يلحّ عليه بالردّ عليهم، يصمت يسوع كما صمت أمام شهود الزور، بالرغم من إلحاح قيافا بالردّ. تساوى الرؤساء إذًا مع شهود الزور، سيّما أنّ الاثنَين «شهدوا ضدّ» (καταμαρτυροῦσιν) يسوع (آ ١٣، راجع ٢٦: ٦٢). التهمة هنا سياسيّة: إنّه «ملك اليهود»، وليست لاهوتيّة كما كانت أثناء المحاكمة أمام المجلس اليهوديّ. تعكس هذه التهمة الخطّة التي اتّبعها اليهود لاستدراج السلطة الرومانيّة للحكم على يسوع، بأن تتّهمه بتهمة تستفزّ سلطة روما. بالتأكيد كان هناك كمٌّ من التُهم والتلفيقات المتنوّعة، وهذا ما توحيه عبارة «كم» (πόσα) التي نقرأها عند الإنجيليَّين: «أما تسمع كم يشهدون عليك؟» (مت ٢٧: ١٣؛ مر ١٤: ٤). في المقابل، يغرق يسوع في الصمت أكثر فأكثر، مرّتين، وبطريقة تصاعديّة: «لم يُجب بشيء... ولم يُجبه ولا عن قول واحد»، تمامًا كعبد أشعيا الذي يغرق في الصمت مرّتَين: «عوملَ بقسوةٍ فتواضع ولم يفتحْ فاه، كحمَلٍ سيقَ إلى الذبح كنعجة صامتة أمام الذين يَجزّونَها ولم يفتحْ فاه» (أش ٥٣: ٧). هكذا هو الأمر عند كلّ من متّى ومرقس، فالاثنان حافظَا على الخطوط العريضة للمحاكمة. غير أنّ متّى، كعادته، حذف اسم «الكتبة» من عداد الرؤساء، في حين أنّ مرقس كرّر قوله إنّ «كلّ المجلس» كان حاضرًا، كما كرّر لمرّتَين استعمال فعل «سأل» في استجواب بيلاطس ليسوع، تمامًا كما فعل في الاستجواب أمام قيافا، بهدف المحافظة على الطابع القانونيّ للمحاكمة.

**د. والشعب يختار بين يسوعَين**

تتتابع المحاكمة أمام بيلاطس (مت ٢٧: ١٥–٢٦؛ مر ١٥: ٦–١٥). ومع أنّ متّى يصرّ، منذ ظهور بيلاطس على مسرح الأحداث، أن يدعوه بـ«الحاكم» (ὁ ἡγεμὼν)[١٩]، غير أنّه جعل قارئه يشعر بأنّ من يمسك بزمام الأمور ويحكم فيها ليس بيلاطس، بل الشعب ومن ورائه رؤساء اليهود. مرقس، من جهته، لم يستعمل هذا اللقب، بل اسم «بيلاطس» فحسب. لثلاث مرّات يرد فعل «أراد»، والفاعل دائمًا هو اليهود (آ ١٥، ١٧، ٢١). إنّه إذًا تهكّم متّاويّ واضح، يبلغ أوجه عندما يصوّر متّى بيلاطس جالسًا على العرش (βήματος)، بينما هو أعجز من أن يعدل، بل راح يتنازل أمام اليهود شيئًا فشيئًا، مع أنّه كان يعلم أنّ الرؤساء قد أسلموا يسوع حسدًا. حُكمُ الصلب نفسُه، «ليُصلَب"، لم يخرج من فمه بل من فم الشعب الهائج، ومرّتَين. ليس عبثًا أن يأتي حكم الصلب عند متّى بصيغة المجهول، «ليُصلَب»، بينما هو عند مرقس بصيغة الأمر «إصلبْه»، لأنّ مَن يحكم بالصلب فعليًّا هو الشعب.

إلى ذلك شدّد متّى دائمًا على براءة يسوع، وعلى أنّ مَن يقتله يسفك دمًا بريئًا. فامرأة بيلاطس تنعته بـ«البارّ» (آ ١٩)، وبيلاطس يغسل يدَيه أمام الشعب لأنّه لا يريد أن يسفك دم متَّهم لم تثبت علّته[٢٠]. لذلك تتناقل مسؤوليّة إهدار دمه من هذا وذاك من أبطال الرواية، الذين يسعى كلّ منهم إلى التملّص من تحمّل هذه المسؤوليّة: الرؤساء ألقوها على يهوذا («أنت أبصر»، آ ٤)، وبالطريقة نفسها يُلقيها بيلاطس على الشعب: «أنتم أبصروا!» (آ ٢٤)، إلى أن استقرّت في الختام على «الشعب كلّه»: «دمه علينا وعلى أولادنا» (آ ٢٥)[٢١]. شدّد متّى على

(١٩) أكثر ما يرد هذا التعبير هو عند متّى ١١ مرّة، منها ٨ مرّات في رواية الآلام، بينما لا يرد عند مرقس سوى مرّة واحدة، وعند لوقا مرّتَين، وجميعها خارج رواية الآلام، وفي أعمال الرسل ٦ مرّات، وفي رسالة بطرس الأولى مرّة واحدة.

(٢٠) في تث ٢١: ٦–٩، يدور الكلام على رتبة غسل الأيدي، في حال وجود قتيل لا يُعرَف قاتله.

(٢١) في أعمال الرسل، واصل اليهود التهرّب من تحمّل مسؤوليّة إهراق دم يسوع (أع ٥: ٢٨)، بينما مسؤوليّتهم كانت واضحة (أع ٣: ١٣–١٥)، وهذا ما أشار إليه يسوع أيضًا في مت ٢٣: ٣٣–٣٦.

شموليّة الشعب في تحمّل المسؤوليّة، فكرّر في النصّ مرّتَين تعبير «جميع»، قاصدًا الشعب بأكمله (آ ٢٢، ٢٥). وكرّر مرّتَين كيف أنّ بيلاطس خيَّر اليهود بين يسوع وبرأبّا («مَن تريدون أن أُطلق لكم: أيسوع برأبّا أم يسوع الذي يقال له المسيح؟»)، مرّة للرؤساء (آ ١٧)، ومرّة للشعب (آ ٢١). وبيلاطس قدّم يسوعَ مرّتَين على أنّه «المدعوّ بالمسيح» (λεγόμενον χριστόν، آ ١٧ و٢٢). هذا عند متّى، أمّا عند مرقس فمرّتَين على أنّه «ملك اليهود» (مر ١٥: ٩، ١٢). اللقبان هنا مترادفان، لأنّ أكثر ما يُقصد بلقب «المسيح» هو وجهه السياسيّ كقائد لليهود، وإلاّ لما أورده الرؤساء في لائحة اتّهامهم ليسوع أمام بيلاطس. مرقس سيجمع هذين اللقبَين على فم الساخرين تحت أقدام يسوع المصلوب: «فلينزل الآن المسيح ملك إسرائيل لنرى ونؤمن» (مر ١٥: ٣٢).

ومن المفارقات المتّاويّة الموجعة، هي أنّ متّى انفرد بين الإنجيليّين الأربعة بنقل الاسم الأوّل لبرأبّا، وهو «يسوع» (Ἰησοῦς)[٢٢]. هكذا كان على اليهود أن يختاروا بين شخصَين يتشابهان إلى حدّ كبير، مع تناقضهما الرهيب، في الاسم: بين يسوع ابن الآب ويسوع «ابن الأب»، كما يعني اسم «برأبّا»! لهذا اكتفى متّى بأن عرّف برأبّا على أنّه «سجين مشهور»، وحذف كلّ التفاصيل التي أوردها مرقس عن دوره في الفتنة، ومن أنّه كان من أبرز المشاغبين فيها، فضلاً عن أنّ هذه المعلومات التاريخيّة لربّما بدت لعينَيه ناقصة ويشوبها الغموض. الفتنة التي تهمّ متّى بالأكثر هي التي كاد موتُ يسوع يُحدثها في العيد. فما كان يتخوّف منه الرؤساء في البداية، من أن «يحصل هياج» (θόρυβος γίνεται) في الشعب (٢٦: ٥)، ها هو نفسه مزمع أن يحصل أمام أعين بيلاطس (θόρυβος γίνεται، ٢٧: ٢٤). هذه طريقة متّى في التعبير أنّ من يُحكَم عليه ليس مجرّد سجين عاديّ، بل هو حقًّا المسيح ملك اليهود!

هذا كلّه يغيب عن بال مرقس؛ فالجمع (ὁ ὄχλος) عنده كان بداية على الحياد، ظهر على مسرح الأحداث عندما صعد إلى بيلاطس ليطالبه، لا بصلب

(٢٢) ليس في كلّ المخطوطات، بل في بعضها.

يسوع، بل أن يطلق لهم سجينًا في العيد حسب العادة المتّبعة (مر ١٥: ٨)؛ وإن هو طالب بصلب يسوع، فتحت تحريض الرؤساء الواضح. حتّى بيلاطس لم يخيّرهم بين يسوع وبرأبّا (كما عند متّى)، بل اقترح عليهم بشكل مباشر إطلاق يسوع («أتريدون أن أُطلق لكم ملك اليهود؟»)، ربّما لأنّه كان يعلم بأنّهم لن يعارضوا إطلاقه، وبأنّ الرؤساء قد أسلموه حسدًا. يفصل مرقس إذًا بين الشعب والرؤساء، تماشيًا مع لاهوته الذي يضفي على الجمع صورة حسنةً في تعاطيه مع يسوع، منذ بداياته في الجليل (مر ٢: ٤، ١٣؛ ٣: ٩، ٢٠...).

**هـ يسوع أمام الجنود**

كما سُلِمَّ يسوع إلى أيدي الخدم، بعد المحاكمة أمام المجلس اليهوديّ، كذلك يُسلَّم إلى هوى الجنود الرومان بعد المحاكمة أمام بيلاطس (مت ٢٧: ٢٧–٣١؛ مر ١٥: ١٦–٢٠). سواء عند متّى أم عند مرقس، يبدو يسوع في قمّة الاستسلام لمصيره المحزن: يبدو بلا معين ولا صديق، متروكًا من الله وأصدقائه، مرذولاً، لا يبدي أيّ حركة، جسديّة أم لفظيّة، لا دور له سوى أن يتلقّى الضربات والهزء والبصاق. حفلة جنون من الأعذبة ما تركت عضوًا من أعضائه إلاّ ومسّت به؛ فكما أنّ المجلس اليهوديّ «كلّه» (ὅλον) «اجتمع» (συνήχθησαν) حوله (مت ٢٦: ٥٦، ٥٩)، كذلك «اجتمعت» (συνήγαγον) حوله هنا الفرقة «كلّها» (ὅλην).

غير أنّ متّى أدخل بعض التوضيحات على نصّ مرقس السريع الإيقاع؛ فنراه مثلاً يصف كيف أنّ يسوع جُرِّد أوّلاً من ثيابه، قبل أن يُلبسه الجنود رداء قرمزيًّا هو جزء من سترتهم العسكريّة، وليس برفيرًا كما قال مرقس، إذ من أين لجنود أن يمتلكوا برفيرًا غالي الثمن؛ ويحدّد متّى أنّ تاج الشوك ضُفرَ ليوضع على رأس يسوع، وأنّ القصبة التي ضُربَ بها رأسُه أمسكوه إيّاها بيمينه ساخرين منه وكأنّه ملك حقيقيّ. كما صحّح متّى التعبير الغريب و«المُلَيْتَن» الذي

استعمله مرقس لوصف الجثوّ[٢٣]، واستعاض عنه بتعبير أبسط «جثوا أمامه» (γονυπετήσαντες ἔμπροσθεν αὐτοῦ).

يبدو يسوع إذًا كدُمية بين الجنود: يُجرَّد من ثيابه ليلبس رداء قرمزيّا، ليعود ويُجرّد منه ليلبس ثيابه؛ توضع قصبة في يمينه، ومن ثمّ تُنتَزع منه ليُضرَب بها رأسه. أمّا التحيّة «سلام يا ملك اليهود!»، فهي تهكّم سياسيّ من وحي جوّ المحاكمة السياسيّة التي أُجريت ليسوع. غير أنّ هذا التهكّم، مع السجدة التي سبقته، يكتسبان عند متّى بُعدًا آخر لا يعرفه مرقس؛ فالجنود الرومانيّون هنا يجثون هزءًا أمام يسوع قُبيل موته بساعات، بينما وثنيّون آخرون، في بداية الإنجيل، أتوا من بعيد يبحثون عن «ملك اليهود» ليسجدوا له (مت ٢: ٢).

في الختام يُساق يسوع إلى خارج أورشليم ليُقتَل. مرقس قال «أخرجوه» (ἐξάγουσιν αὐτὸν)، أمّا متّى فلم يستعمل هذا الفعل، بل لمّح إليه بعد قليل عند قال «وساقوه ليُصلب، وبينما هم خارجون...» (Ἐξερχόμενοι). هكذا تتحقّق في يسوع صورة «الابن» في مَثَل الكرّامين القتلة، الذي يمسكه الكرّامون ويُلقوه خارج الكرم ويقتلوه (مت ٢١: ٣٩)[٢٤]. كما تتحقّق في يسوع صورة عبد يهوه الذي سيُسلِم ظهره للضرب وخَدَّيه للنتف ووجهه للبصاق والإهانات، لكنّه لا يتراجع ولا يتخاذل لأنّ الربّ سينصره (أش ٥٠: ٥–٧).

### ٦– الصلب والموت

#### أ. الصلب: الابن المُعيَّر ببنوّته

مع هذا النصّ وصل القارئ إلى قمّة الحدث: الصلب (مت ٢٧: ٣٢–٤٤؛

(٢٣) نقرأ عند مرقس: τιθέντες τὰ γόνατα προσεκύνουν αὐτῷ. وهو ما يقابل في اللاتينيّة: *ponere genua*، وترجمته في الفرنسيّة: Se mettre à genoux.

(٢٤) هذا الابن هو، عند مرقس، «الابن الحبيب» (١٢: ٦–٨). غير أنّ مرقس يسبّق القتل على الإخراج خارج الكرم: «فأمسكوه وقتلوه وألقوه خارج الكرم». التوازي عند متّى موفّق أكثر، إذ قال: «فأمسكوه وألقوه في خارج الكرم وقتلوه» (مت ٢١: ٣٩).

مر ١٥: ٢١–٣٢). لا يزال يسوع بلا كلام، فالكلّ يتكلّم ما عداه، والأفعال غالب فاعليها الجنود والمارّة. مع ذلك، يسوع يتمّم الكتب. ظلَّ متّى وفيًّا لنصّ مرقس، ولم يختلف عنه إلاّ في بعض التفاصيل التي لم تغيّر الخطوط العريضة للحدث، وهي: سمعان القرينيّ، تحديد المكان، تقديم الخمر، الصلب، اقتسام الثياب، تحديد الساعة (غير مذكورة عند متّى)، تحديد التهمة وتعليقها على الصليب، اللصّان زميلا الصلب، التعيير الثلاثيّ.

بدايةً، حذف متّى الإضافات المرقسيّة عن سمعان القرينيّ، من أنّه كان أبا الاسكندر وروفس وآتيًا من الريف. ربّما بدت له هذه الإضافات بلا فائدة، لا تهمّ جماعته ولا سياق الرواية وَجَريها. لصورة سمعان القيرينيّ دلالتان اثنتان: من غير أن يدري، حقّق هذا الغريب بالتمام كلام يسوع عن حمل الصليب: «من أراد أن يسير خلفي فليُنكر نفسه **ويحمل صليبه** (ἀράτω τὸν σταυρὸν αὐτοῦ) ويتبعني» (مت ١٦: ٢٤). هكذا صار تلميذًا خفيًّا له، «سمعانًا» آخر مقابل سمعان بطرس الذي تخاذل وأنكر. وبكونه «أحد المارّة» (حسب مرقس)، وقد حمل الصليب بصمت، فهو يعاكس باقي «المارّة» الذين لم يوفّروا يسوع بتعييراتهم.

قبل الصلب أُعطي يسوع خمرًا ممزوجًا بمرارة (οἶνον μετὰ χολῆς)، وفي آخره قبل أن يموت سيُعطى خلاًّ (ὄξος، مت ٢٧: ٤٨؛ مر ١٥: ٣٦). قد تساعد هذه السوائل في تخفيف ألم المصلوب (أم ٣١: ٦–٧). متّى يقول إنّ يسوع عندما ذاق الخمر لم يُرد أن يشربه، فتمّم بذلك الكتاب: «جعلوا في طعامي سمًّا [في السبعينيّة: «مرارة»]، وسقوني في عطشي خلاًّ» (مز ٦٩: ٢٢). بينما يسوع عند مرقس يرفض بالمطلق أن يشربها، لأنّه أراد أن يشرب كأس الألم من دون أيّ عنصر مخفّف.

من الغريب أنّ حدث الصلب، بحدّ ذاته، لا يوصف إلاّ عرضيًّا، عبر فعل واحد: «وصلبوه» (مر ١٥: ٢٤، καὶ σταυροῦσιν αὐτὸν). لا يُذكر كيف صُلب يسوع، وبأيّ شكل، وما رافق الصلب من آلام وأحاسيس...

ومن الأغرب أنّ متّى أعاد صياغة الفعل، فاستعمله بصيغة ثانويّة (اسم فاعل)، تاركًا الصيغة الرئيسيّة لفعل اقتسام الثياب الذي أعقب الصلب: «وبينما هم يصلبونه، اقتسموا ثيابه...» (Σταυρώσαντες δὲ αὐτὸν διεμερίσαντο τὰ ἱμάτια αὐτοῦ). الصلب عقاب يعرفه القرّاء جيّدًا، فلمَ وصفه بتفاصيله المرعبة؟ بينما اقتسام الثياب، إن شدّد عليه الإنجيليّان، فلأنّه يخبّئ وراءه تتميمًا للكتاب (مز ٢٢).

التعييرات أتت من ثلاثة مصادر، وبتصاعد واضح: من الذين صودف مرورهم هناك، من رؤساء اليهود الخصوم التقليديّين[٢٥]، وأيضًا من زملاء الصلب. هذا المنحى التصاعديّ يهدف إلى تبليغ الشعور بالوحدة عند يسوع إلى أقصاه. في لحظات رهيبة كهذه، لا أحد يتواجد ليدافع عنه! يلاحظ أيضًا أنّ مادّة التعييرات هي نفسها التي اتُّهم بها يسوع أثناء المحاكمة: هدم الهيكل، الادّعاء بأنّه المسيح ملك إسرائيل[٢٦]، وبأنّه ابن الله. يعكس هذا الكلام حقيقة الصراع الذي كان قائمًا بين يسوع والسلطات اليهوديّة، صراع جوهره دينيّ وظاهره سياسيّ.

زيد على هذه التعييرات تَحدٍّ جديد من وحي المناسبة، محوره فعلان اثنان: «خلِّصْ نفسك»، «إنزلْ عن الصليب». توسّع متّى في التحدّي، فزاد على مرقس ما يلي: «وضع رجاءه في الله، فليُنقذه الآن إن كان يريد ذلك، لأنّه قال أنا ابن الله» (آ ٤٣، راجع مز ٢٢: ٨؛ حك ٢: ١٨). الاعتراف بأنّ يسوع خلّص غيره يأتي هذه المرّة من فم الخصوم، وهو يتوافق بالتمام مع رسالة يسوع التي أوضحها الملاك ليوسف منذ البداية («هو الذي سيخلّص شعبه من خطاياهم»، مت ١: ٢١)، ومع ما كان يجري على يد يسوع من آيات شفى خلالها المرضى، وأقام الموتى، وحرّر الممسوسين. هم يدعونه إلى أن يخلّص

(٢٥) من الفريد بمكان أن يزيد متّى هنا، على لائحة الرؤساء، الكتبة الذين طالما غيّبهم عن مسرح الأحداث.

(٢٦) حذف متّى هنا لقب «المسيح»، الوراد عند مرقس، مكتفيًا بلقب «ملك إسرائيل»، لأنّه اعتبره تكرارًا للتعبير نفسه.

نفسه، بينما هو كان قد قال مرّة: «من أراد أن يخلّص نفسه يُهلكها» (مر ٨: ٣٥؛ مت ١٦: ٢٥). كيف ليسوع أن ينزل عن صليبه ولا يقبل أن يحمله، بينما هو نفسه قال لمن أراد أن يتبعه: «من لم يحمل صليبه ويتبعني فليس أهلاً لي»؟ (مت ١٠: ٣٨؛ رج أيضًا مر ٨: ٣٤؛ مت ١٦: ٢٤). هم يشترطون لخلاصه أن «يريده» الله (θέλει αὐτόν)، بينما هو يفعل بالتمام «إرادة» الآب. كان الجميع تحت الصليب يطلبون أن يروا معجزة (حسب مر: «لنرى ونؤمن»). غير أنّ منطق يسوع كان في مكان آخر؛ فهو لو أراد أن يتدخّل الله في مشهديّة ملحميّة تُفحم الخصوم، لكان طلب سابقًا في بستان الجسمانيّة أن يرسل الله اثنَي عشر فيلقًا من الملائكة ليخلّصه من خصومه (مت ٢٦: ٥٣). سبق للفرّيسيّين والكتبة أن طلبوا آية من يسوع (مر ٨: ١١؛ مت ١٢: ٣٨)، وسبق ليسوع أن قال مستشهدًا بأشعيا، إنّ الرؤية لا تودي بالضرورة إلى الإيمان: «تسمعون سماعًا ولا تفهمون وتنظرون نظرًا ولا تبصرون» (مر ٤: ١٢؛ مت ١٣: ١٤). كما أنّ القارئ لا يمكنه، وهو يقرأ التعييرات، ألاّ يتذكّر تجارب يسوع في البرّيّة بعد العماد من يوحنّا. «إن كنتَ ابن الله»، التي يزيدها متّى في آ ٤٠ (وآ ٤٣)، هي نفسها تبدأ بها التجارب الثلاث في البرّيّة.

الجوّ في هذا النصّ قاتم، غير أنّ بوادر الفرج والانتصار تلوح من قلب العتمة، ولو لم تُعلَن بعد. ها هو يسوع يُعلَن باحتفاليّة من على الصليب أنّه ملك اليهود: «هوذا يسوع ملك اليهود» (بينما مرقس: «ملك اليهود»). وها هم الجنود «يجلسون هناك يحرسونه» (آ ٣٦، لا توجد عند مرقس) كأنّه ملك يتربّع على عرشه. وها هو يُصلب في الوسط، واحد عن يمينه وآخر عن يساره، وكأنّه في ملكوته، تمامًا كما سبق لامرأة زبدى أن طلبت لابنَيها يعقوب ويوحنّا: أن يجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره في ملكوته (مت ٢٠: ٢١؛ رج مر ١٠: ٣٥–٣٧). يومها لم تدرك هذه الأمّ ما طلبت، فأحالها يسوع، كشرط للجلوس عن يمينه ويساره، إلى كأس الآلام التي يجب عليهما أن يشرباها، وإلى معموديّة الدم التي عليهما أن يصطبغَا بها. مجد يسوع هذا ما يلبث أن تنبلج علاماته عند القيامة في اليوم الثالث، بل قبل ذلك في موته على

الصليب، ولو بشكل مستتر.

**ب. الموت: الآبُ المنتقم خفيةً**

ها هي لحظة الموت تقترب (مت ٢٧: ٤٥–٥٦؛ مر ١٥: ٣٣–٤١). ولأنّ الذي يموت ليس أيًّا كان، كان لا بدّ أن ترافق موته، من قبله ومن بعده، ظواهر غير طبيعيّة. وكما حصل مع حدث الصلب، فإنّ لحظة الموت ذاتها توصف بتعبير واحد، بينما الظواهر المرافقة تحتلّ الجزء الأكبر من النصّ.

بدايةً، ظاهرة الظلمة المبكّرة، على مدى ثلاث ساعات و«على الأرض كلّها». يفهم القارئ أنّ اللغة المستعملة هنا ليست لغة جغرافيّة بل رمزيّة، تذكّره بما قاله الأنبياء في يوم الربّ الرهيب، كيف أنّ الظلمة ستحجب الأرض كلّها: «ويكون في ذلك اليوم، يقول السيّد الربّ، أنّي أغيّب الشمس عند الظهيرة، وأعتّم الأرض في رائعة النهار» (عا ٨: ٩). عند موت يسوع، تنقلب العناصر الكونيّة، فيضحي النهار مساءً، ولن تستقيم إلاّ عند فجر يوم القيامة (مت ٢٨: ١).

الظاهرة الثانية: صرختان ليسوع المصلوب. من أين لمصلوب محتضر لا تفصله عن الموت سوى لحظات أن يصرخ مرّتَين «بصوتٍ عظيم»؟ يبدو أنّ «يسوع لا يموت مجهولاً»[٢٧]. يلي الصرخة الأولى صلاة ليسوع يتوجّه فيها نحو الله، «إيلي إيلي لمّا شبقتاني»، وهي مقتبسة من مز ٢٢: ١. عند متّى ومرقس، هذه أولى كلمات يسوع على الصليب والوحيدة. من على صليبه لا يتكلّم يسوع إلاّ مع أبيه، وليس مع أحدٍ من البشر. الواقفون إزاء الصليب متأهّبون دائمًا للتعليق. يظنّون أنّ يسوع ينادي إيليّا ويرجون مرّة أخرى أن «يروا» إذا كان إيليّا سيأتي ويخلّصه (حسب مر: «يُنزله»). في وصف الموت، يختلف متّى عن مرقس. يقول متّى حرفيًّا: «وترك الروح» (ἀφῆκεν τὸ πνεῦμα)، بينما مرقس دمج التعبير: «أخرج–الروح»

(٢٧) GNILKA, J., *Das evangelium nach Markus*, vol. II, Zürich-Neukirchen-Vluyn 1978-1979, p. 323.

(ἐξέπνευσεν).

في الظواهر التي تلت موت يسوع، ظاهرة واحدة مشتركة بين متّى ومرقس، وهي انشقاق حجاب الهيكل إلى شطرَين. الفعل الذي استعمله مرقس ونقله متّى عنه هو «تمزَّقَ» (σχίζω). أراد مرقس، من خلال هذا الفعل، أن يقابل موت يسوع بمعموديّته على يد يوحنّا، حين «تمزّقت» السماء (مر ١: ١٠؛ بينما متّى يقول «فتحت السماوات»). الهيكل أصبح بلا دور، كلّيًّا، بتمزّق الحجاب كلّيًّا «من أعلاه إلى أسفله»، فتتحقّق أولى التعبيرات التي عيّر الشهود بها يسوع. هذا التقارب بين عماد يسوع في البداية وموته في الختام لا يغيب عن متّى: ففي المعموديّة كما في الموت، تُعلَن بنوّة يسوع الإلهيّة، هناك عبر صوت من السماء (مت ٣: ١٧)، وهنا عبر إعلان قائد المئة (٢٧: ٥٤)؛ هناك ينزل الروح على يسوع، وهنا يسوع «يترك الروح» (٢٧: ٥٠).

في الظواهر الأخرى، فئتان مقصودتان: الطبيعة (الأرض زُلزلَت، الجبال صُدِّعت)، والأموات (القبور فُتحت، وأجساد الراقدين القدّيسين أُقيمت وخرجت من القبور وتراءوا لكثيرين). الأفعال تأتي في المجهول، لتدلّ على أنّ الفاعل هو الله. هذه الظواهر هي نفسها التي وصف بها الأنبياء قديمًا يوم الربّ (أش ٢٦: ١٩؛ حز ٣٧: ١٢؛ دا ١٢: ٢؛ عا ٨: ٨...). كما سبق للقارئ أن قرأ أنّ أورشليم كلّها «زُلزلتْ» (σείω، مت ٢١: ١٠)[٢٨] عندما دخلها يسوع، وكذلك سيُصيب الحرّاس يوم القيامة من منظر الملاك الذي نزل ودحرج الحجر من على باب قبر يسوع (٢٨: ٤). هكذا ينبئ متّى مسبقًا بقيامة يسوع. يسمّي متّى أورشليم «المدينة المقدّسة»، وهي التسمية نفسها الواردة في تجارب البرّيّة (مت ٤: ٥). هذه الظواهر فعلت فعلها، ودفعت قائد المائة[٢٩] ومن معه إلى الاعتراف بأنّ يسوع هو حقًّا ابن الله. هذا هو التعبير الثاني يتحقّق، ويسوع ينتصر.

(٢٨) لا يرد هذا الفعل عند الإنجيليّين إلاّ عند متّى، وثلاث مرّات.

(٢٩) للتعبير عن قائد المائة، يستعمل متّى ἑκατόνταρχος، مصحِّحًا التعبير «المُلَيْتَن» الذي استعمله مرقس، κεντυρίων.

**خاتمة**

تتبّعنا متّى في روايته آلام يسوع، نصًّا بنصّ، وقارنّاه مع مرقس، فبدا حينًا وفيًّا في نقله عنه، وأحيانًا متميّزًا، ومتميّزًا جدًّا. أروع ما وقعنا عليه عنده هو تهكّمه، وكيف أنّه أخرج الحقيقة مرّات كثيرة من فم الخصوم: من يهوذا وقيافا وشهود الزور وبيلاطس والجنود والمعيِّرين، فبانَ يسوع حقًّا المعلّم، والرابّي، والمسيح، وملك اليهود، وملك إسرائيل، وابن الله... وهو حقًّا البارّ، والبريء الدم، ونافي دور الهيكل، ومتمِّم الكتب، وبالأخصّ القائم من الموت. هذا كلّه قاله الخصوم، وهم بالطبع لا يدرون ما يقولون. أكثر من ذلك، لقد نَعَتَ الرؤساءُ يسوع بـ«المُضِلّ» (مت ٢٧: ٦٣)، بينما هم تاهوا في الضلال «إلى اليوم» (٢٨: ١٥). حرسه الجنود على الصليب جسدًا معلَّقًا، وفي القبر جثّةً هامدة، لكنّهم أُجبروا أمام حقيقة القيامة أن يدّعوا «أنّهم كانوا نائمين» (٢٨: ١٣)، والحارس عادةً لا ينعس لا ينام.

لذلك، يصحّ في رواية الآلام أن تُدعى وبحقّ رواية الأضداد الخامدة والمفارقات النائمة، أضداد ومفارقات لن تلبث أن تفيق وتُعلَن. يسوع المهزوم سينتصر بالقيامة؛ والتلاميذ المُشتَّتون من الخوف، سيتشتّتون مجدّدًا بين الأمم حاملين، هذه المرّة، بشرى الخلاص (٢٨: ١٦–٢٠)؛ والآب الذي بدا غائبًا في عمًى عمّا يجري، تبيّن أنّه حاضر ويرى ويجازي «في الخفاء» (مت ٦: ٦)... أمّا الخصوم، فهنا أيضًا أصابوا في قولهم، إنّ الحقيقة الأخيرة كانت عليهم أسوأ من الأولى (٢٧: ٦٤).

## المراجع


Brown R., *La mort du Messie. Encyclopédie de la Passion du Christ*. De Gethsémani au tombeau, Bayard, Paris 2005, pp. 55-65.

Gnilka, J., *Das evangelium nach Markus*, vol. II, Zürich-Neukirchen-Vluyn 1978-1979, p. 323.

Meynet Roland, *La pasqua del Signore*, EDB, Bologna 2002.

VANNI Ugo, «La passione secondo Giovanni: una sinfonia di simboli», in A. BINI, *Le voci della passione*, Atti del Convegno di studi, Roma 30-31 marzo 2000, ed. Alfa Studio, Bologna, 157-166.